# أجنحة متكسرة

## مجموعة قصصية

تأليف: نادية توفيق

## إ هد ا ء

إلى البشر

الذين استوحيت منهم هذه القصص...

## قــارئــي الــعزيــز

أقدم إليك هذه المجموعة القصصية، التي، وإن باعد الزمن بيني وبين حكاياتها،
إلا أنها لبنة في عملي الأدبي الكلي لا يمكنني تجاهلها.
أتمنى أن تجد فيها ما ينفع، وربما ما يسعد...

نادية توفيق


**Website**: http://www.nadiatawfikbooks.com/

**Email**: nadiatawfikbooks@gmail.com

**FB**: @nadiatawfikbooks

**Twitter**: @BooksNTawfik

**Tumble**: @nadiatawfikbooks

**Copyrights**

Copyright © 2019 by Nadia Tawfik

All rights reserved. This book or any portion thereof may not be reproduced or used in any manner whatsoever without the express written permission of the publisher except for the use of brief quotations in a book review.

First Edition, 2019

ISBN 978-1-7752891-1-1

لا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه إلا بإذن صريح ومكتوب من المؤلفة والناشر.

كافة حقوق التأليف والطبع والتوزيع محفوظة للمؤلفة وكتب لوتس.

صدر للمؤلفة أيضا رواية "نساء المحروسة" عام 2020

وهي متوفرة ككتاب ورقي وعلى كافة منصات الكتب الإلكترونية.

Table of content

# Contents

إهداء
قارئي العزيز
Copyrights
Table of content
أجنحة متكسرة
أبنائي
أسوار المدينة
أشياء صغيرة
العصفور
جلبة
جوزاء
حزن
ظلمة ليل
سكون
ليلى
رحيل
حلم نهار أحد

# أجنحة متكسرة

خيل إليّ أنني أسمع أغنيات. تأتي من البعيد. ربما يكون زوجي قد دخل الحجرة أثناء فترة الغفوة، لا أذكر. لم أعد أستعمل ذاكرتي إلا لماما. قالت لي أعز صديقاتي إن التلوث الذي يسود العالم هو السبب الرئيسي لكل حالات ضعف الذاكرة. أما زوجة البواب فما فتئت تنصحني باستشارة أهل العلم. إنه موسم النصائح. كأن السماء تمطر نصائح في هذا الوقت من السنة. في الصباح أشعلت نارا وحاولت أن أتدفأ. ضحك زوجي وأحضر لي جهاز تدفئة وتبريد في نفس الوقت. ماما سألتني نفس سؤالها الذي تسأله من عشر سنوات. حاولت أن أعدل من النص لدرء الملل. بعد الشاي والكيك لم يتبق الكثير. تذكرت كعكة الزفاف التي صنع نصفها من البلاستيك. تناول زوجي الحقيبة والموبايل والمفاتيح وغادر. بقيت وحدي، لحظات؟ ساعات؟ ثم فتحت دولابي أستعرض عطوري وأغمضت عيني.

علي أن أتظاهر بعشق لا حدود له لأم كلثوم أمام حكماء العائلة. كان زوجي يبتسم في خبث. الوحيد الذي أطلعته على السر. دائما ما يهددني مداعبا بإفشائه. لا يعلم مقدار رعبي من تلك المداعبة. لا يعبأ في كل الأحوال.

أصابني شلل غير مرئي. لم أعد أدري كنه ما يحدث. فكرت أن أسافر. عرضت الأمر على زوجي. رفع يده عن مفاتيح الكومبيوتر وابتسم. لم يخفق قلبه لي لحظتها. تضايقت وأغمضت عيني احتجاجا .

أغنياتي فسدت لطول التخزين. قررت الأسرة قضاء أمسيات نميمة حميمة في قرية يقال أن هواءها نقي. أما أنا فقد قررت الطيران إلى البلاد السعيدة بلا حقائب ولا باسبور. سخرت مني أعز صديقاتي، وأخبرتني أن الحصول على التأشيرة من رابع المستحيلات.

ذهبت معهم. ابتسمنا، أكلنا، جلسنا. السكون والتأمل. الكلمات والمعاني. كل الضروري لأجل سهرة مثيرة. العجائز لوحن بعصيهن في وجه الصغار. انتقدت ماما قصة شعري الجديدة. قالت إنني أشبه دمية فقدت رونقها من كثرة اللعب بها. أعلن زوجي أنني لست سوى دمية من عهد قديم. في التلفزيون مذيعة بألف رأس. التف الجميع كي يحصوا رؤوسها. كلما سقطت واحدة نبتت لها أخرى جديدة.

لم أعترض حين وضعني زوجي في حقيبته، وقرر أن يجول بي الأسواق. الخالات والعمات قررن شراء تورتة لفتاة مجهولة. قلن إن الحلوى تجلب السعادة. وإن الضحك نذير شر. بدأت أتعلم البكاء وقاية من الحزن.

في الصباح تبدو كل الأشياء بالأبيض والأسود. كالصور الأولى للوليد. أمام صينية إفطار صغيرة قبلني زوجي مؤكدا أن اليوم الجديد لم يشرق بعد. أيام زواجنا الأولى شهدت لحظات درامية. كنا نتبادل أدوار البطولة. لعبة تلو الأخرى وصرنا زوجين. فوق حقل أخضر كنت أعدو. حين كان يأتيني هاجس العودة كان مرحي يفسد.

أجهزة زوجي تملأ المساحات والفراغات. كلها. لا أجد موضعا للزينة، للبالونات، للبيبلو. رفع عينيه يوما إلى فوق، فهبطت إلى أسفل. أحيانا تكون حركتنا دائرية. نصنع دوائر بأقطار خرافية. نعدو حول بعضنا ونتوه رغم حدود الدائرة.

أكد لي الجميع أن كل شئ نسبي. لذلك فالخسارة والمكسب صورتان وهميتان لشيء متوحد. تقبلت فكرة الاصطياف الجماعي على مضض. أقسم زوجي أنني لو فزت في الاختبار لسوف يشتري لي جوهرة عظيمة. ابتسمت وقبضت على أكرة الباب بأصابعي. فما انفتح.

يوما ما سأرحل إلى منطقة منكوبة، لا يعرف أحد من ساكنيها شيئا عن أحزاني ودموعي. سأكون هناك أقوى، بلا زوج، ولا جيران. سأعيش الحزن النقي بلا وجل. سأرسل لزوجي خطابات بلا عنوان. أسطر قليلة، فهو لا يطيق القراءة صباحا أو مساءا.

# أبـنـائـي

أعتذر منكم أبنائي. سامحوني. لم أترك لكم ذكرى طيبة ولا ثروة كبيرة. لقد كنت دائما هكذا خارجة عن القانون والعرف، مشاغبة، سيئة السيرة. حاولت كثيرا تقويم نفسي ولكنها كانت فطرتي التي جبلت عليها وكأنها لعنة لصيقة بي حتى آخر العمر. ها أنذا اليوم منبوذة في كوخ صغير على أطراف الغابة الجرداء. استرجع ذكرياتي بمرارة وأتألم دون ندم. فقد توقعت هذا المصير منذ البداية وتوقعه معي كل الأقارب والأصحاب حتى زوجي الحبيب قال لي يوما: "سوف تنتهين نهاية مفجعة". لقد كانوا رحماء معي إذ حكموا عليّ بالنفي ولم يعذبونني طويلا ولم يقتلونني. لقد استأصلوا النبتة الفاسدة واستراحوا.

عندما أنجبتكما ظن الجميع أن حالي سينصلح، ولكن هيهات منذ أول لحظة بدأت أعراض تمردي تظهر. بدأت المشاكل مع الخبيرة الاجتماعية عندما صممت أن أرضعكما من لبني. ثارت واتهمتني بالشذوذ. ولكني أردت أن أضمكما إلى صدري في لحظة التحام لا يعوضها حنان العالم. وبعد جدال عنيف استمر شهورا لم يكن أمام زوجي المسكين من خيار إلا أن يرسلكما إلى إحدى أكبر المؤسسات الحكومية حيث تتلقيان كل رعاية واجبة. لم تكن هذه أول المشاكل التي سببتها له. ففي المدرسة حيث بدأت أعمل بعد زواجي بعدة شهور نشبت بيني وبين الناظرة مشكلة رهيبة عندما رفضت أن أمسك بالعصا بيدي اليمنى وبإصبع الطباشير باليد اليسرى. ولكن لم يكن لي من الأمر من حيلة، فلم أكن أكتب إلا باليد اليمنى ولم أستطع يوما أن أرفع عصا في وجه طفل صغير. أيامها سعى زوجي طويلا عند بعض الكبار لإنهاء المسألة وديا. كانت أياما عصيبة. ولكنها لم تكن الوحيدة. في الواقع لقد كانت أيامي في تلك المدرسة كلها عصيبة. فقد كنت أسمح لتلاميذي بفك أيديهم أثناء جلوسهم في الفصل، بل كنت أسمح لهم أن يحركوا أيديهم وأن يجلسوا على المقاعد كيفما شاءوا. فأنا للأسف لم أتعود النظام. أنا فوضوية بطبعي. لا تؤاخذاني فأنا أعلم كم عانيتما من فوضويتي طوال حياتكما.

وبعد أن أبعدت إلى مدرسة أخرى وأخذت أدرس لسنين عمرية أكبر، هدأت الأمور بعض الشيء إلى أن ارتكبت فعلا فاضحا في فناء المدرسة. سأخبركما بما حدث علكما تعذراني وترحماني، فأنتما طفلاي.

كان بعض الأطفال يلعبون الكرة عندما كنت مارة بالقرب منهم، وإذا بأحدهم يسقط إثر ضربة قدم غير مقصودة من زميله. سقط الطفل على وجهه وأخذ ينزف بطريقة مريعة. لم أر جيدا مصدر النزف، ولكنني لم أشعر إلا وأنا أخلع الجاكيت الذي كنت أرتديه وأحاول كتم مكان الجرح. ثم حملته بصعوبة شديدة بمساعدة زملائه إلى حجرة الكشف الطبي. طبعا حولوني للتحقيق بتهمة التحرش بمراهق في الثانية عشر. لقد قال لي المحقق وقتها أنه كان عليّ استدعاء أحد زملائي الرجال ليتولى المهمة، أما وقد فعلت ذلك فمهما كانت نواياي فقد خلعت ملابسي في قاع المدرسة وتحرشت جسديا بمراهق في عمر أبنائي. أيامها تحمل زوجي، والدكما، الكثير، لدرجة أنه فكر في الرحيل من مدينتنا. لذلك طلب مني ألا أعمل بعد اليوم وهكذا كان. ولكن طبيعتي المشاكسة غلبتني. فقد كنت أزور بعض الأقارب في إحدى المناسبات السعيدة، وإذا ببعض أطفال العائلة يحيطون بي. وأخذت أقص عليهم بعض الحكايات القديمة. مما أثار دهشة السيدات وامتعاضهن، فالحكايات القديمة تفسد عقول الأطفال. ولكنني أجدها مسلية. يومها نهرت السيدات الكبيرات الأطفال وفرقتهم. وبعد مرور بعض الوقت انشغل الجميع في الحفل ونسوا الأطفال. فكانت فرصة أن نتجمع مرة أخرى في ركن قصي. وهذه المرة ارتكبت ما هو أسوأ. كان معي في حقيبتي صلصال. فأخرجناه وأخذنا نحاول تشكيل شخصيات وأحداث الحكايات به. ويبدو أن ضحكنا وصل إلى مسامع الكبار رغم انشغالهم، فانقضوا علينا وفرقوا شملنا.

لست أدري كيف تواتيني الشجاعة الآن للإفصاح عن كل هذه المخازي أمامكما. ولكنني أود أن أتطهر. ربما آمل أن تصفحا عني إذا ما استمعتما إلى دفاعي الواهي هذا. أعرف أنكما لا تستطيعان أن تغفرا لي افتقاري للحكمة معكما. اعتراضي الدائم على سلوككما المهذب. ربما كنت آمل أن أنجب من يشبهني. أعترف أني كنت أكره ملابسكما، طريقة إنصاتكما إليّ التي كانت تشي بالاحتقار. أعترف أنني كنت أستاء من تفوقكما الدائم في فرق الطلائع. كنت أتمنى أن أجد لي نصيرا.

أتذكر يوم عاد والدكما من سفرة دامت شهرا. كانت أول غيبة طويلة له عني وشعرت وقتها أنني أحبه فعلا وآليت على نفسي أن أطيعه وأرضيه على قدر استطاعتي. وعندما دخل المنزل جريت نحوه وقبلته أمامكما. لم أكن أقصد ما فعلت. كان عذري الوحيد أنني لا أقصد ما أفعل حقا. أنا لا أزن الأمور بميزان سليم. لقد كان يقول لي "أنت طائشة وطيشك سيقتلك يوما".

كما كانت آخر رئيسة لي في العمل تردد دائما على مسامعي "أنت عدوة النظام". عندما قبلت زوجي أمامكما لم أدرك عواقب ما فعلت. حتى فوجئت بالخبيرة الاجتماعية تطرق بابي ذات صباح، وهي تحمل معها ملفا عريضا. وخصصت لي عدة جلسات. انتهينا منها إلى أنني بحاجة إلى إعادة تأهيل. ثرت طبعا كالمعتاد. وصمم زوجي أن أحضر التدريب، ووافقتماه كالعادة. فذهبت فقط كي أرضيكم ويا ليتني ما فعلت. في أول محاضرة قاطعت المحاضر لأنه قال "إن القاعدة الذهبية في التربية هي الطاعة العمياء. يجب أن يتعلم أطفالنا ألا يناقشوا الأوامر منذ أن يعوا الأمور". ولكنني انبريت بعفويتي المعتادة واعترضت قائلة: "إن الطفل إذا ترك على سجيته سيصبح مبدعا، أما إذا أحيط بالقيود من كل جانب فسوف يصبح إنسانا مشوها غير قادر على التفاعل مع الحياة". توجهت نحوي النظرات كالسهام المصوبة وشعرت بها تخترقني. وتفرغ لي المحاضر لمدة ساعة يعلمني فيها أصول الكلام ثم أصول الأدب ثم أصول اللياقة ثم أصول التحاور وأخيرا أصول التربية. بعدها قررت أن أنقطع عن التدريب. "لا أمل فيك". هذا ما سمعته من زوجي ليلتها.

لم يغمض لي جفن هذه الليلة. كان عليّ أن أجد الحل الحاسم لمشكلتي وحدي بلا مساعدات خارجية. بما أنني خلقت "كسّارة للقواعد" فعليّ أن أصلح من شأني وإلا فلأنعزل عن البشر. وأخذت قراري، الذي ما كان عليّ أن آخذه، قررت أن أتطوع في "الخدمة العسكرية النسائية". أخبرت زوجي بما قررته "إذا كان الجميع قد فشلوا في تعليمي النظام، فسأذهب إلى معقل النظام نفسه". استمع إليّ زوجي في صمت حكيم كعادته وناداكما كي أعلن عليكما قراري المصيري. هنأتماني ببرود على محاولتي الإصلاحية وأخذتما حقيبة المدرسة وانصرفتما. ابتسم لي زوجي في حزن قبل أن يخرج ذلك الصباح.

الحياة في المعسكر لم تكن سيئة عكس ما توقعت. على العكس لقد صور لي حماسي وأملي في أن أصبح إنسانة جديدة أن هذا هو ما أحتاج إليه، وأقبلت على واجباتي أؤديها بحب وجدية. كانت القاعدة الذهبية هي "الطاعة العمياء للأوامر". كانت هذه الكلمات الحاسمة تتردد في ذهني وفي جميع حواسي بلا كلل ولا ملل كل ساعات النهار. وبدأت أنظر للغد بكثير من الأمل. وفي أول زيارة لي لكم بعد أسبوعين رأيت الدهشة في عيونكم. دهشة ممزوجة بإعجاب بزيي العسكري. ولأول مرة يومها أحس أننا أسرة متآلفة. كم كان دافئا ذلك الشعور!

كنت الأولى في السباحة وسرعة رد الفعل والأخيرة في إصابة الهدف. وبعد قضاء حوالي شهر داخل المعسكر جاء أحد قادة الجيش الكبار لزيارتنا ومعه عدسات التلفزيون. ويبدو أن الأمر كان مرتبا قدريا كي تشاهد الأمة كلها نهايتي. اختارني مخرج التلفزيون لأقف في أول الطابور. وهمس في أذني أنني "المرأة الوحيدة في هذا المكان". ابتسمت رغما عني لكني عارضته قائلة إن زميلاتي هن من خيرة نساء الوطن. انتحت بي القائدة جانبا وأمرتني أن ألتزم الصمت إلا إذا طُلب مني الكلام وأعطتني ورقة صغيرة فيها الردود التي من المفروض أن أرد بها على استفسارات القائد الهام عن الحياة في المعسكر، وما نراه مناسبا كنساء الجيش ودورنا المستقبلي في الحياة

المدنية. حملقت في الورقة فلم أقرأ إلا سخافات. وبدأ عقلي يعمل دورته المعتادة. ذكّرت نفسي "الطاعة العمياء"، وحفظت ما في الورقة عن ظهر قلب. وبدأت مراسم الزيارة ودارت الكاميرات. وأخذ قلبي يخفق. واقترب دوري. وجدته واقفا أمامي طويل القامة، مهيبا، وسيما، صوته عميق النبرات. ملكتني رهبة شديدة ومسح كل الكلام من ذاكرتي. سألني عن النظام والتدريبات. بدأت أتكلم وإذا بالجميع يحملقون فيّ. والمخرج يبتسم ابتسامة عريضة. سألني عما سأفعله عند العودة للحياة المدنية. "عندما جئت إلى هذا المعسكر كنت فزعة مما ينتظرني، ولكن يا للغرابة وجدت هنا نظاما أقل صرامة مما وجدته في حياتي المدنية. بل واستمتعت بالتدريبات والألعاب والحياة الجماعية. إن حياتنا المدنية بحاجة ماسة لهذا النظام العسكري. لذلك أرى أن يغزو الجيش المدن ويعلم الناس كيف يعيشون حياتهم بطريقة أكثر مرحا وأكثر ليونة".

لم أشعر إلا والقائدة تطلب وقف التصوير. لم أفهم التعبير الذي ارتسم على وجه الزائر الهام. ولكني أعرف أنه بعد يوم واحد خرجت من المعسكر ومعي رزمة أوراق كلها تثبت أنني غير صالحة للعيش في هذا المجتمع. وأرسلت وزارة الشؤون الأسرية لزوجي خطابا للمثول أمام لجنة عقوبات. وذهبنا جميعا. وبعد بضع جلسات أصدرت اللجنة حكمها بعدم صلاحيتي كأم وكزوجة.

لقد تعبت ولم أعد حتى أقوى على طلب صفحكم. ولكنني أطلب منكم الآن شيئا واحدا. جربوا طريقتي ولو لمرة واحدة علكم تجدون لي عذرا.

أحبكم...

# أسوار المدينة

أغلقت دوني أسوار المدينة، وصاحبة الخان العجوز اشتدت في مطاردتي بلسانها اللاذع وتعليقاتها الساخرة. الحانة الوحيدة التي تفتح أبوابها حتى ساعة متأخرة كانت حانة "الرجل الأعور"؛ وتعتبر هذه الحانة أرقى حانات هذه المدينة المحمومة حيث أنها تستعمل أضواء الليزر وتستورد الخمور من بلاد الفرنجة. المشكلة أن أموالي تتناقص والمال هام جدا في الحياة الأولى. في تلك الليلة المقمرة أخذت أسير على الإسفلت الأسود على غير هدى، أتذكر حياتي السابقة كما يفعل اليائسون أو المسنون. كنت قد اشتريت "نقالة إشاعات" ورغم ثمن الجهاز الغالي إلا أنني أيقنت أن ثمنه فيه؛ فهو ينقل الإشاعات ببراعة كبيرة صوتا وصورة، وتشعر كأنها وقعت فعلا، والأطرف أنه يتيح الفرصة أمام جميع قاطني المدينة للتعبير عن آرائهم فيطوف المنادي على البيوت والأكواخ، ثم تذاع نتائج اللقاءات في النهاية عبر الكابلات المتطورة، وأحيانا يكون البث مباشرا إذا كان الضيف ذا حيثية. أما أنا فلم تكن عندي مقومات هذا العالم وكنت أكتفي بالفرجة.

لمحت أثناء سيري رجلين بالزي العسكري. توقفت متوجسا وتظاهرت بأنني أقرأ اسم الشارع. عندما قدمت إلى هذه المدينة لأول مرة لاحظت أن عدد العسس أكبر من عدد المدنيين. أثار الأمر ريبتي في البداية، ثم ما لبثت أن التقطت الشعور العام السائد واعتدت إلى حد ما على وجودهم المفرط في كل الأماكن. رغم ذلك عندما يحل الليل يتملكني شعور الغرباء بالعطب وأشعر أنني هدف سهل لكل الأشياء الضارة. ابتعد الجنديان بلا صوت تقريبا، وواصلت أنا سيري. أصبح من الصعب عليّ قضاء أمسياتي في "حانة الأعور" فقد نقصت نقودي بشكل يهدد بالعوز في المستقبل. كما أن صديقتي الراقصة غيرت اسمها بعد أن نالت شهرة واسعة بين رواد الحانة. كانت "عائشة" بارعة في آلاف الأشياء وليس فقط في الرقص. للأسف بعد أن أصبحت مشهورة صارت متعالية جوفاء. حتى خطيبتي السابقة ما عادت ترسل لي رسائلها السرية المعتادة في جوف البئر القريبة من الفيلا التي تقطنها مع أخيها وزوجته القعيدة. باختصار لم تكن هذه أبدا أيام سعدي.

مرت عليّ ليال كثيرة مثل الليلة. فمن الصعب الاحتفاظ بمزاج واحد ثابت في هذه المدينة. لكن الليلة أحس إحساسا مغايرا؛ أتمنى لو يحدث شيء أي شيء يكسر هذا الحصار من حولي، ربما يكون عودة خطيبتي السابقة إلى سابق عشقها واستهانتها بالأخطار. كنت أحب كثيرا جو الخطر والإثارة الذي عشناه بكل جوارحنا قبل إعلان خطبتنا، التي لم تدم سوى عشرة أيام. أخوها لم يحتمل فكرة إعطاء أخته لغريب، فنساء المدينة إما أن يبعن أو يوهبن. ففتيات الحانة على سبيل المثال يعتبرن ملكية خاصة للأعور بقوة القانون، وإذا ما أردت امتلاك إحداهن فعليّ نقل الملكية. "هكذا يصبح لنا سعر. بل إن بورصتنا رائجة جدا" هكذا قالت لي صديقتي الراقصة. كانت من أرشق الراقصات وأخفهن ظلا، قبل أن تشتهر طبعا، وكانت صداقتنا مصدر سعادة وراحة بالنسبة لي. لم أخبر خطيبتي السابقة بأمر هذه الصداقة، ليس خوفا من ثورة غيرة أو قطيعة، وإنما لخوفي على هذه الصداقة وحرصي على خصوصيتها. اعترف أنها لم تكن صداقة بريئة تماما. صفة الصداقة ليست نعتا دقيقا لما كان يدور بيننا، ولكني أعلم أن حدود الوفاء المتاخمة لحدود اللاوفاء ليست إلا حدودا متعرجة وحساباتها اجتهادية تماما.

في أثناء بحثي عن مغامرتي الليلية، وجدتها أمامي. كانت تحملق فيّ بشيء كأنه عينان. أنا لا أدعي معرفتي بكل مخلوقات هذه المدينة، ولكنني كنت، حتى هذه الليلة، ملما بأشهرها وأتابع الباقي عبر الشاشات. اقتربت مني في ثقة لم تستطع العتمة أن تخفيها. كانت أنثى بلا شك، هكذا أخبرتني غريزتي. كنا عند التقاطع الذي تمر منه كل دفيليهات الأعياد الوطنية؛ وكأنها على موعد معي

ابتسمت محيية. لا أستطيع أن أروى تفاصيل الدقائق التي تلت النظرة الأولى، ولكنني أذكر تماما أنني تبعتها حتى مركبتها الخاصة وأننا بدأنا نتكلم. ومر وقت ليس بالقصير حتى أدركت أننا نتكلم بلغتي القديمة. وبدأت أميز عينيها وشفتيها، ولكن تصنيفها النوعي ظل مستغلقا عليّ. كانت لا زالت تحتفظ بابتسامتها الودودة. لم أستطع أن أبتسم بدوري لأنني كنت مشغولا بخطواتي التي بدأت تقصر وتقصر بشكل أثار ريبتي. أخذت المخلوقة البديعة تتكلم تسعين في المائة من الوقت؛ لابد أن تلك خاصية من خواص الصنف الذي أتت منه. أنصت بإمعان إلى عبارة فصيحة صدرت عنها وأدركت أنها تفوقني علما وثقافة.

غادرتها غير نادم. كانت بعدها مبتسمة. لم استفد شيئا من لقائنا العابر إلا أنها بدت أكثر إشراقا في لحظة الفراق. للحظة فكرت أن أحوم حول فيلا خطيبتي؛ أن أعود عاشقا كما يجب أن يكون العاشق. لكن هيامي كانت تحده المدينة من جميع الجهات، إضافة إلى خطر الأخ الغيور على قبيلته؛ فهذه المدينة على الرغم من التعايش السلمي بين عرقياتها المختلفة إلا أن الإحساس القبلي هو السائد. ولهذا السبب لم أعثر لي على مأوى حقيقي إلا في "حانة الأعور" الذي أخذ في التمدين قليلا قليلا حتى بدأ يفقد هويته الوطنية، وفتياته ما عدن هاويات لمهنتهن وبتن يحترفن فن التسرية.

عند نهاية شارع قررت أن ارتكب فعلا مخلا بالآداب العامة (وما أكثر قائمة الممنوعات التي يطالها قانون المدينة)، فيأتي العسس ويقودوني إلى المخفر، وهناك سيدركون على الفور أنني عنصر غريب هدام، وسوف يفتحون لي أسوار مدينتهم طواعية.

# أشيـاء صغيـرة

ارتدى قميصا رماديا جديدا. اندفعت فاصطدمت يدي باسطوانة أغنيات قديمة. كنت مأخوذة ببراعته في تنظيم أشيائه الصغيرة. كانت يده تعمل بمنتهى البراعة. وضع فرشاة الشعر بجانب أدوات الحلاقة والأفتر شيف. فصلها بمهارة عن الملابس. حتى الكتابان اليتيمان اللذان اصطحبهما معه، لم ينس أن يخصص لهما مكانا قصيا مريحا في حقيبته. الملابس الداخلية مرتبة ترتيبا جيدا في ركن خاص. كان يراعي أصول اللياقة في كل شيء، كما كان يفعل دوما معي. لم يعطني وعدا وأخلفه، لم ينطق بكلمة جارحة في حضرتي. بدت حقيبته على أهبة الاستعداد. بانتظار ساعة الصفر. كنت وحدي عندما شاهدته، من خلال ثقبي الصغير الذي لا يعلم عنه شيئا، يضع الباسبور في جيب الجاكيت ويتأكد من حالة النظام في جيب الحقيبة. كان قد وضع فيه مجلة علمية تحوى الكثير من الأرقام ونوتة التلفونات وأجندة المواعيد. بدت على وجهه سيماء الرضا. خطوت نحوه خطوة صغيرة لا تكاد تذكر، اندهش وتراجع خطوة كبيرة. "مشغول جدا" هكذا سمعته. أو ربما هيئ لي. صرت أخلط الحلم بالوهم ولا أميز في هذا الخضم المجنون أية حقيقة. بدأت أنقر على المفاتيح. نظر إليّ في ازدراء حاول أن يخفيه بطبيعة الحال، كما هي العادة، بابتسامة مهذبة. "يجب أن تشغلي نفسك بأمور هامة". لم ألمح في المرة الأولى الآلة الحاسبة. لم تتضح ملامحها تحت ركام الملابس والعطور. كان رجلا نظيفا ما في ذلك شك. يعشق السباحة والطعام الجيد. يفضل النحيفات. حديثه شيق وبسيط. حديث في متناول الجميع. الكل سيفتقدونه بلا شك. ظل سره الكبير مستغلقا رغم ذلك. حاولت اختراقه آلاف المرات. كل مرة كنت أعود مثخنة بالجراح. ظل يداعبني الأمل بانهيار الحقيبة. أمل سرعان ما تبدد عندما شرع في تثبيت دعائمها بحرص شديد وبكثير من الخبرة. وكأنه خلق لهذا العمل. كنت أراقبه في صمت وصبر. نسيني تماما عندما بدأت عملية الإغلاق. أداها باستمتاع وكأنه يضفي اللمسة الأخيرة على عمل فني راق. اقتربت للمرة الأخيرة. لم تنهر دفاعاته. شوه لي وجه الحياة. وضع الحقيبة على الأرض وأخذ يسوى شعره. لم يكن مرتبكا ولا أنا. كنا نتبادل الأنخبة بوقار. وضعت اسطوانة الأغنيات القديمة في يده. شكرني فشكرته. أصبح الكلام ثقيلا في اللحظة التي غاب فيها.

# العصفور

أطل من النافذة المفتوحة على سماء رحبة. داعبته نسمات عابرة لبضع لحظات ثم رحلت. عندما عاد إلى منزله عصر ذلك اليوم لم يجد عصفوره. لقد رحل بالتأكيد هذه المرة. منذ أن فتح له القفص وترك له حرية الرحيل، كلما اختفى ظن أنه قرر أخيرا أن يحلق بعيدا. ثم يعود فيراه يقفز هنا وهناك بجسمه النحيل داخل الشقة الواسعة. إذا قرر يوما أن يتركه لن يستغرب فالعصفور الصغير فقد كل ما يربطه بهذا المنزل. الوليفة الزاهية الألوان ماتت فجأة بلا سبب وفسد البيض الصغير الذي وضعته، وصار العصفور منكس الرأس. هو أيضا فقد حبيبته من أشهر قليلة.

تعود أن يترك النافذة مفتوحة. فهذه النافذة تطل على السماء مباشرة. محمية من فضول أعين الجيران ومن ضجيج أصواتهم التافهة. تعود أن يجلس أمامها ليتصفح جرائده ولا يقرأها، ليستمع إلى الموسيقى، والأهم كي يغرق في زرقة السماء الصافية. يرحل بروحه إلى عوالم نقية. ويعيش معها مرة أخرى. يتواصلان، يحس بوجودها. للأسف هذه اللحظات جد قصيرة. عندما يشعر أنه يصعد ويصل ويحس. يحدث شئ ما مغرق في التفاهة كي يعيد إلى جسده ثقله وإلى عقله دورته المعتادة. قد يكون زعيق صبي في الشارع. قد تكون ورقة يحركها الهواء فجأة. وقد تكون مجرد هزة. حزن شديد يتملكه فيخرجه من سعادته الرائقة. كانت هنا منذ وقت ليس بالطويل. ولم تبق طويلا. جاءت كي ترحل. كانت صغيرة الحجم صوتها خفيض وجهها صبوح. كانت أقرب أهل الأرض إلى نفسه. منذ أن تزاملا في أحد المراكز الثقافية طوال شهر ونصف عرف أنه لن يكون هناك سواها. أحيانا يكون السحر أشد تأثيرا من الواقع. كانت صادقة وواضحة. كانا يتفاهمان بسهولة. وعندما تم الزواج أقر بأن الله قد أنعم عليه بكل النعم الدنيوية وأنه نال كفايته. كان يعود إلى البيت بقلب منشرح. عارفا أن الصدر الحنون بانتظاره. سيحتويه ويفرحه. وعندما اشتري لها العصفور سارعت بالبحث عن رفيقة حياة له. بعدها عاش الأزواج الأربعة في سعادة.

كان الوقت ليلا عندما استيقظ من غفوة قصيرة ووجدها تبكي. ماتت العصفورة الصغيرة تظاهر بأن الأمر لا يستحق الحزن العميق وسوف يشتريان غيرها ولكنهما لم يفعلا أبدا. تجاهلت الأمر برمته ووضعت القفص في ركن مظلم من البيت. العصفور لم يعد يصدر أي صوت ولم يعد يحفل بنزهته الصباحية إلى ضياء الشمس في الشرفة. تركا الخادمة تتخلص من الأفراخ التي لم تر النور. ثم فوجئ بها ذات مساء تقول له أنها عرضت علي أختها أن تأخذ العصفور. "سنشتري له عصفورة أخري، اطمئني". لم تعلق. لاحظ بعد ذلك أنها أصبحت أقل مرحا عن ذي قبل وصارت تميل إلى الوحدة. وأصبح لكلماتها طعم حزين. ذات مرة كلمته كثيرا عن الجنة والنار وعما إذا كانت من الفائزين برحمة الله. مرة أخري حدثته عن وصف للجنة قرأته في رسالة الغفران لأبن المعري. قرر أن يسافرا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بورسعيد. كانت رقيقة لأقصي حد. وعندما استقلا مركبا في القناة التصقت به وقالت له: "أنا سعيدة جدا". بدت مشرقة ومطمئنة زال قلقها وحزنها. وفسر سوداويتها السابقة علي أنه حزن لفقد العصفور لزوجته. وقرر التخلص من العصفور فورا.

فتح الدولاب ليجد ملابسه مبعثرة. راعته الفوضى. أغلقه سريعا وكأنه يخشى من مواجهة هذه المشكلة. عاد يستلقي على فراشه الكبير. أمسك بالريموت وأخذ يعبث بقنوات التليفزيون. تتابعت الصور ببلاهة أمام عينيه. عيون ضاحكة، شفاه تتحرك، كلمات مبعثرة، شعور ملونة، إيماءات مصطنعة. توقف عند إحدى القنوات وترك الجهاز يثرثر. كان وجودا وهميا يعطى إحساسا مزيفا بعدم الوحدة. مجرد صوت أجوف. مجرد صورة جرداء. بعد رحيلها تولى أبواه قضيته. وصارا يذكراه ليل مساء أن حياته يجب أن تسير

سيرها العادي. الأم، منذ معرفتهم بمرض الزوجة، بدأت تلمح له بالبدء من جديد. وكأنها تبرم صفقة جديدة لتعويض خسارة صفقة سابقة. لم يكن ينصت إليها على أي حال. ولكنه كان يأمل في مواساة من نوع أخر. أول ليلة قضاها في بيتهما بمفرده أخرج قفص العصفور من ركنه المهمل. ووضعه في الحجرة. بدا لا مباليا العصفور. كان مسمرا في مكانه والحب مبثور في أرض القفص الخشبي. لاحظ أن ريشه قد خف. بدأ يفهم معاناته. وفي الصباح التالي بعد أن تناول قهوة بلا طعم فتح له باب القفص وفتح له النافذة الرحبة وتركه ومضي. وعندما عاد في ساعة متأخرة من الليل. ألقي بجسده المنهك في الفراش ولم ينم. كان الظلام دامسا ولم يشأ أن ينير مصباحا أو حتى الأباجورة الصغيرة. بعد قليل قام متثاقلا كي يصلي فوجده علي المائدة الصغيرة في الصالة. نظر إليه بذهول. لماذا لم يرحل؟ حرك العصفور رأسه حركات سريعة ثم طار وحط بالقرب منه علي حافة لوحة صغيرة معلقة. ابتسم له.

كان يقضي معها أطول وقت ممكن. كانت هادئة، لم تجزع من مصيرها. نادرا ما كانا يتحدثان عن المرض. كان يحكي لها حوادث يومه. وكانت تتكلم عن أشياء فعلتها أو شاهدتها. أي كلام عن المستقبل كان محرما بينهما باتفاق غير معلن. عندما حدثها عن الرحلة التي ينظمها النادي إلى أوروبا أواخر الصيف لم يضف شيئا، فقط أسر إليها الخبر. ابتسمت وبدأت تتذكر رحلة شهر العسل. كانت هذه اللحظات هي أقسى من أي حقيقة يعيشونها كأنه باب مغلق دونهما هذا المستقبل وحارسه سيسمح له بالمرور وحده. أما هي فقد حان وقت رحيلها دونه. كان يشتري لها نوع الشوكولاته التي تحبها. كان يدللها. لم ينغص عليهما أخر أيامهما معا سوى شفقة الأقارب والأصحاب وتعاطفهم. القلة فقط كانت تتميز بالحصافة ورفاهة الحس. الكثرة أغرقتهم في بحور شجن وبؤس كانا في غني تام عنهم. فالحزن يحتضنهما في إسار لا فكاك منه. وهما يهادناه ويخدعانه. يختلسان آخر الذكريات. في الأيام الأخيرة فكر أن يشترى للعصفور أنثي تؤنس وحدته. ولكنه كان يراه أحيانا يقف علي حافة النافذة. وعندما يظن انه يراه للمرة الأخيرة يعود العصفور إلى البيت محلقا أو يدخل قفصه يتناول حبه ويشرب ماءه.

ثم حانت الساعة. "الحالة بتداي". كانت العبارة الشاذة التي خرقت سمعه، ليس فيها حزن أو أسف أو تردد، قالها ومضى إلى حال سبيله. الصورة السينمائية عن الطبيب الذي يهرب من نظرات أهل المريض ويتكلم بأسف ويداري الحقيقة ويربت على كتف المكلومين لم يكن لها من أساس من الواقع. بالنسبة لهذا الطبيب كانت مجرد حالة ورقم غرفة. أحزنته العبارة قدر ما أحزنه معناها.

لم يغادر جوارها. نصحه الجميع بغباء أن يخلد إلى الراحة وأنه لا فائدة. استعصى عليهم الفهم. إنها أثمن لحظاتهما معا. لا يفسدها سوى أنها لحظات مهددة بالفناء في أي وقت. ظل ملتصقا بها رغم نصائح الحكماء.

حتى اليوم ما زال يتذكر رائحة الحجرة. شكل زجاجات الأدوية. الممرضة القصيرة الممتلئة. والدادة الطيبة القلب التي ما فتئت تقول لها كل صباح: "ما شاء الله منورة مثل القمر هذا الصباح". ما زال يشم رائحة أنفاسها العطرة ويحفظ كلماتها عن ظهر قلب. ابتساماتها وآخر نظراتها.

كل يوم ينزع ورقة من نتيجة الحائط وسوف تنتهي الأوراق ويشتري نتيجة السنة الجديدة ويبدأ بنزع أوراقها. عصفوره ما زال يعيش معه، يحلق أحيانا وأحيانا يقبع ساكنا في قفصه. ما زال مترددا بشأن شراء عصفورة أخرى له. والعصفور لا يشتكي. ولا يهرب منه باحثا عن وليفة جديدة.

# جلبة

انكسر الكوب الزجاجي محدثا جلبة باردة أيقظت الحداد وصاحب محل الورد والجارة السليطة اللسان وبائع الجرائد العجوز المحني الظهر. مرة أخرى نفس الحدث ونفس الصباح. التقط أنفاسه بصعوبة بسبب التدخين وأشياء أخرى. العمل ينتظره على أحر من الجمر. ورفاق الكفاح. وتفاهة التفاصيل التي تستغرق منهم كل الوقت وتستنفذ منهم كل الطاقات. قام يجر رجلا وليس مضطرا لجر الأخرى فهي ستتبع صاحبتها. فعل كل المطلوب كي يخرج للنور في أبهى حلة. وتبعه الشحاذ الممل كعادته كل صباح حتى باب السيارة. نصحه بالعودة إلى زوجاته الثلاث. وأدار المحرك دون أن يعبأ بثقب الأوزون ولا بإنقاذ الأرض.

قدم إلى العمل في الثامنة تماما. نفس موعد قدومه للأرض، نفس موعد قهوته. احتار في أمر الزميلة الرشيقة. ساعة لطيفة وساعة سمجة. بدأ بالنقر على مفاتيح الكومبيوتر ويحرق أول سيجارة. سرعان ما امتلأ المكان جلبة وحركة وأنفاسا. سيقان تروح وسيقان تغدو. وكأنه على حافة هاوية يتفرج على آخر لقطة من الفيلم قبل السواد الأعظم. بدأ يغرق منذ سنوات طويلة. ربما منذ بدأ ينسى صلواته وينسى أهدافه العظمى وآماله الكبار. بدأ يغرق ولا يسعى على الإطلاق. لطوق نجاة ربما. للإمساك بتلابيب فرحة هاربة أو حتى وهم جميل. ذهبت المرأة وذهب الطفل. لم يحزن قدر ما استسلم. يتحول الناس أمامه إلى أرقام ووداتا ويصبح العالم أقل أهمية. الزميل المبتسم دائما دخل وألقى عليه ثلاث نكات. ثم ساد السكون لمدة خمس دقائق كي تعود الجلبة أكثر ضراوة.

أسرع إلى البيت كي يحاكي زملاءه الذين يتناولون الغداء. رفض دعوتي غداء كي يستمتع بوحدته. قابله وهو يغلق باب السيارة. ابن الجيران المراهق. حدثه بحديث هام ثم صعدا معا حتى الطابق الثاني حيث افترقا. سمع البواب يزعق على زوجته بطريقة غير لائقة. فتح باب بيته وهو يبتسم لنفسه. عانقته رائحة دافئة. وجد خطابا على الأرض. رفعه. بطاقة معايدة فات ميعادها. أثلجه أن يتذكره صديق وفي فرقت بينهما المسافات الشاسعة.

فاتت الساعتان بسرعة غير عادية. بدأت جلبة الشارع تهدأ بشكل تدريجي. ارتدى السويتر وهو يستمع لأغنية لأم كلثوم. في طريق العودة للعمل لمح شابة مليحة ذات وجه رائع. أفرحته رؤية الجمال الرائق. فكر بذكرى بعيدة لم تبهت بعد. لم يمهله أحد من الزملاء كي يغوص في أحلامه الوردية. كلام وضحكات وهمسات وأسرار ووعود وأمنيات ومشاجرات ملونة. وصلت الجلبة إلى ذروتها قبل الرحيل. ولكنه لم يكن مستعدا. تعبت عيناه من شاشة الكومبيوتر ولكنه لم يمل. تذكر شيئا عليه شراؤه. سافر إلى الحي البعيد. تسلى بسماع تمثيلية إذاعية قديمة. قرر أن يتعشى من "كنتاكي" هذا المساء بعد أن يفرغ من الشراء. وصل إلى المحل ثم لم تطاوعه نفسه للنزول من السيارة. لم كان إذن كل هذا المجهود وكل هذا التعب؟ فقط لا يريد النزول. يحلم بالصمت. أشعل سيجارة وطفق يفكر. مرت دقائق ربما ساعات. بدأ الظلام يحكم قبضته على المدينة. عاد دون أن يشتري شيئا. صلى العشاء. ولم يغمض له جفن.

تراءت له خيالات وأطياف. وبدأ يرى نفسه جديدة نقية. الحلم القديم. لم يفقده بعد. ذهبت وذهب الطفل ولكنه ما زال يحفظ حلمه في مكان أمين. إنما دوائر الملل تعيقه عن التحليق.

امتدت يده من تلقاء نفسها إلى دفتر قديم. أوراقه لم تزل نضرة. فيها عبق فتي وابتسامات عريضة. أدار قرص المسرة وأتاه الصوت المغرد من بعيد. شكر الله في سره. استسلم لخدر السعادة العائدة. لفه الحنين برداء واق. وبدأ يهفو إلى ضحكة الماضي المنسية. استمع إليها بانتباه. السنوات لم تكن بمثل القسوة التي تخيلها. الأيام انطوت وجاء سواها. اليوم. الليلة لهما. وغدا.

# جوزاء

أخذت تنظر إلى صورتها في المرآة بإعجاب، ملابسها الأنيقة العصرية. الأساور الفضية اللامعة. شعرها المنقوع في "الجل".
حسدتها على ثقتها بنفسها. كانت مبتسمة. وكنت عابسة. نظرت إلي محذرة: ''إياك أن تفسدي علي نزهتي! ''
أطرقت في الأرض.

عندما عادت من الخارج كانت ثائرة مهتاجة. صرخت في وجهي: ''هل علي تحمل غباءك هذا طوال العمر؟''
''لقد تحولت النزهة البريئة إلى نزهة عاشقين. وانقسمت المجموعة إلى ثنائيات. فما كان مني إلا أن تمسكت بأهداب الفضيلة. ''
''ماذا يضيرني من حديث تافه من شاب تافه؟ أنا وأنت نعلم جيدا أنه لا يعني ما يقول، وأنه ربما حتى سينسى اسمي بمجرد انتهاء النزهة، فلم لا نستمتع بوقتنا ونضحك ونمرح؟''
''لم أطق تلميحاته ونكاته السمجة. ''
''إنك لم تكفين مطلقا عن طلب العودة للمنزل، وكأنها الجملة الوحيدة التي استطاع عقلك الغبي تكوينها. لقد اعتبرك الجميع مملة. ولن يدعوك أحد للخروج بعد اليوم. ''
''تعرفين أن ماما لن تسمح بمثل هذه النزهة مرة ثانية. ''

لم تدعني أنام تلك الليلة. صممت على محاكمتي كعادتها من وقت لآخر. وأخذت تقلب صفحات الماضي الصفراء.
''إنك تصيبينني بالصداع. ''
''وأنت لا تكفين عن حماقاتك المستمرة. متى تتعلمين أنه إذا أردت أن تجدي لك مكانا تحت الشمس، عليك أن تتركي لي اليد العليا في حياتك؟ أتذكرين يوم أهانتك الناظرة في الطابور لمجرد أنك أسدلت شعرك في ذلك الصباح المشؤوم؟ وأنت من فزعك من صفعتها الشهيرة أخذت تبكين وتعتذرين كالعبيد؟ أتذكرين يوم اكتشفت أمك وجود رواية "الحب الكبير" في حقيبتك وأخذت تنعتك بأبشع الصفات؟ وبدلا من أن تفهمينها أن فتاة في مثل سنك يمكنها أن تقرأ مثل هذا النوع من الروايات، خاصة إذا كانت رواية بلهاء تتحدث عن التضحيات وما إلى ذلك. وبدلا من أن تدافعي عن حقك الإنساني هذا، أخذت تبكين وترددين ببلاهة "دي رواية كويسة. ما فيهاش حاجة."''

أتذكرين يوم دعتك صديقتك للعب التنس معها؟ جبنت ولم تخرجي رغم علمك التام أن والديك لن يعودا إلا في المساء. أتذكرين كيف قضيت أياما طويلة تندمين على فوات هذه الفرصة النادرة؟ أتذكرين كيف شجعتك على طلب الاشتراك في رحلة الإسكندرية؟ وكيف شجعتك على الاندماج مع زميلاتك وكيف أخذن يبدين دهشتهن من انطلاقك ومرحك اللذين كانا خافيين عليهن تماما في المدرسة وكيف غرقت في أحلام سعيدة تلك الليلة واستيقظت للمدرسة صباح الأثنين متعبة ولكن مقبلة بشهية على الدراسة؟ أنت نفسك اعترفت أن ما ينقصك هو الحياة الاجتماعية. وأتذكرين كيف شجعتك على تعلم كرة السلة وعلى مواجهة اعتراضات والديك بالحجة والمنطق؟ وكيف كنت أحفزك في الملعب كي تتخاطفي الكرة وتستميتي في الدفاع عنها وتمرري الأهداف؟ أتذكرين يوم اتهمتك زميلتك حمراء الشعر السمجة بأنك ارتكبت "فاول" وأنه من الخطأ الجري ممسكة الكرة في يدك، وكيف احمر وجهك ولم تردي عليها

الرد الذي تستحق؟ وتجمعت البنات فما كان مني إلا أن كومت أمام هذه المعتدية كومة كبيرة من الإهانات وأفهمتها إنها ليست فقط حمارة في "الباسكيت" بل في كل الأشياء وانقلب الأمر إلى حرب ولكنك خرجت منتصرة ومعك عدد هائل من المناصرين والمتعاطفين؟ طبعا ساعد على ذلك أن حمراء الشعر مكروهة من معظم الفتيات ولا تكاد تجد لها صديقة واحدة يتيمة. ألم تتعلمين من هذا أن الناس لا تحب سوى الأقوياء، وأنه من يتهاون في حق نفسه لن يجد له نصيرا؟ ولكنك، للأسف، لا تستوعبين الدرس. ‘‘

’’إنك تكرهينني. أليس كذلك؟‘‘

’’لحظة تردد وخوف من جانبك وينهار كل ما تعبت في بنائه‘‘.

’’لست بحاجة لتذكريني بضعفي فأنا أدرى الناس به، ولكن هذا لا ينفي أنك شريرة أحيانا‘‘.

ضحكت ضحكتها الساخرة المعتادة، وأخذت تفكر وحدها. شعرت بالغيظ ثم بالهوان، فأنا لا أحبها أن تتركني وحدي في ظلمات العجز.

’’يا غبية! أنا لا أكرهك طبعا. وأعرف كيف ألجمك في نهاية المطاف. اسمعي! إذا كنت أدعك تتحركين بحرية أحيانا فهذا كرم مني. أما عن مسألة الشر فأنت لا تملكين الميزان الحساس لذلك. فأنت، بكل بساطة، لا تقدمين على أي فعل خيرا كان أم شرا. أنا الموتور وأنت عجلة القيادة. أنا المحرك والموجه. للأسف أنت تشوهين صورتي. ورغم ذلك فوجودك ضروري. رغم أني لا أعلم سره ولكنها الحكمة الإلهية. ثم إنني إذا كنت أطلب العدل لنفسي وللآخرين، فهذا مطلب مشروع وليس له أية علاقة بالشر‘‘.

’’هل كان مشروعا أن تفشي سر صديقتي لأبيها؟‘‘

’’سر صديقتك؟ هل تسمين هراءها هذا سرا؟ كل مراهقات العالم يعشقن المشاهير. ثم إنها هي التي بدأت الابتزاز. هل نسيت إنها كانت تلمح إلى قصة السيجارة بمناسبة وبغير مناسبة؟ بل ووصل بها الأمر إلى إنها بدأت تضيف إليها تفاصيل لم تحدث وكان لابد من إيقافها عند حدها. ثم هل نسيت الخدمات الجليلة التي قدمتها إليها؟ خرائط الجغرافيا التي كنت "تشفينها" لها وقطع الترجمة والسماح لها بإجراء المكالمات من تليفوننا و"توك" الشعر التي كانت تستعيرها منك ثم لا تعيدها أبدا، وزجاجة البارفان الثمينة التي أخذتها للأبد؟ كل هذا نسيته وأخذت تتساخف عليك وتحيل حياتك جحيما، وأنت تستسلمين لهذا الهوان بشكل مخز‘‘.

’’أنا لا أحب أن آذي أحدا‘‘.

’’لماذا تسمحين لأحد إذن أن يؤذيك؟ أفيقي واعلمي أنه لولاي لكنت انتهيت منذ زمن طويل. كل مخلوق يحتاج إلى درع. وأنا درعك‘‘.

تعب رأسي فأرحته على الوسادة. وبدأت هي تمل حديثنا فاتخذت ركنا بعيدا. ونسيتني.

# حزن

كان يدخن سيجارته الثانية على أنغام اسطوانة قديمة لبول مكارتني. وكنت أنصت من زوايا عجزي الحيادي للأصوات الصادرة عنه. وكنا نخترع سويا لغتنا الخاصة بنا. دخان السيجارة أعمى حواسي. استنشق بعمق قارورة عطري وابتسم برقة. كنت في غفوة واقع بسيط: إنني أحب هذا الرجل.    بائعة الزهور ساعدتني على اختيار ما يناسب منها. كنت ألبس نظارة الشمس التي أفضلها وقميص بيج يتناغم لونه ويتطابق تماما مع لون عيني. كان ينتظر بجانب سيارته. أخذني إلى مكان بعيد تلك الظهيرة. صاحبة البيت طلبت منه مغادرته لأنه رفض الاقتران بابنتها الوحيدة وكدت وقتها أن أجن. يوما ما سنمتلك منزلنا الخاص. ابتسم وأشاح بوجهه الحبيب بعيدا. حدثته عن صديقتي المقربة المسافرة إلى بلد أفضل. وعد أن يأخذني بعيدا ذات يوم رائع.

كنت مترددة في الإفضاء بحكايتي لأمي، بسبب مأزقي الكلاسيكي. كان خارج المدينة في عطلة نهاية الأسبوع. وقد اقترب موعد زواج أخي. لم اهتم كثيرا بأمر الفستان الذي سأرتديه في تلك المناسبة، لكن أمي أصرت على الذهاب للتسوق في تلك الظهيرة. فظيع. وزني يزداد وأكره النظر في المرايا. في الظهيرة قادت أمي السيارة بسرعة لأن حركة المرور كانت خفيفة في تلك الساعات الميتة من النهار. تملكتني خشية أن أفقد جنيني في حادث مروري سخيف.

قررت العودة إلى العمل مع ابن عمي. كان يحاول مغازلتي منذ فترة بعيدة، لكنه بدا غير مهتم بذلك هذه الأيام، وكان هذا مصدر راحة لي. لم يسألني أسئلة كثيرة. وفي أول أيام العمل ذكرني بشيء مسل، حادث طفولي جمعنا سويا. لقد انمحت تلك الأيام نهائيا من حياتي، كما أن الشيب خالط شعره أيضا.

عاد ليقول وداعا. وما زلت احتفظ بالجنين سالما. كان في حالة يرثى لها من فقدان السيطرة على نفسه. كان يمر بمرحلة حرجة من الدفاع عن النفس الفاضح. تقبلت كل أكاذيبه كحقائق مشروعة. قلت له إنني سأصبح ثرية. ابتسم ومضى.

# ظلمة ليل

خرجنا من "ماريوت" إلى موقف السيارات. مرة أخرى أخذت تصلح تسريحتها في مرآة السيارة رغم أنها قضت وقتا لا بأس به في حمام السيدات بالفندق. طلبت سيجارة.

سألتها: "إلى أين تريدين الذهاب الآن؟"

اقترحت: "نلف بالسيارة."

ظننتها ستطلب شيئا أكثر إثارة. أدرت أغنيات راقصة. أخذت تتمايل مع الإيقاع. اقترحت عليها أن تأتي لزيارتي في ألمانيا.

"إن أرسلت لي زيارة سوف آتي بالتأكيد."

ذكرتها أن إلمامها بالألمانية سيساعدها كثيرا. لم يبد عليها الحماس رغم وعدها. كانت ثملة بعض الشيء.

بعد تعارفنا أسر لي صديق في أذني أنها على أتم استعداد لكل شيء. لكن بعد ما عرفتها عن قرب اكتشفت مزاجيتها وتقلبها الهائل من حال لحال. أحيانا كنت أشعر أنها تصطنعه، لدرجة أنها ادعت يوما أن اسمها الحقيقي ليس "سلمى". لم أصدقها. ولكني لم أتحر الحقيقة. هوائية علاقتنا وعدم انتظام لقاءاتنا ووقت فراغي الضيق، كل ذلك جعلني أفضل التعمية التي كانت تفرضها عليّ. ثم أنني كنت أحب حل الأحجية. كانت حجتها واهية "كل ما في الأمر أنني أعشق التغيير". لم أكن صادقا معها أنا الآخر مائة في المائة. كنت أتأنى في عواطفي معها ولكنني كنت أتظاهر بالسخاء. لابد أنها كانت تحس بزيفي بما أنها هي الأخرى تعيش زيفا مماثلا. الغريب أن "سلمى"، أو أيا من كانت، لم تحاول أبدا تحديد الموقف معي. ولم أجد غضاضة في ذلك حتى بدأت أشعر بأهميتها تتزايد داخل عالمي المجحف.

بعد حوالي نصف ساعة من اللف بالسيارة بدأت تفيق من الخمر والموسيقى ودخلت مزاجها الليلي. "فسلمى" كانت تتلون بلون الطقس وتغير الوقت. مع شروق الشمس وغروبها وهبوط الظلام وانبلاج الفجر. كانت تغير جلدها مع الطبيعة وكأنها تتبع برنامجا داخليا دقيقا يحتم عليها أن تكون هذه أو تلك. هذا التغيير لم يكن مزعجا بقدر ما كان محيرا. كانت تدخل أعماقي في لحظة وتجعلني أنفر منها في اللحظة التالية. الليل كان له تأثير عجيب عليها. وكأنها تدخل في إطار مختلف. تصبح أنثى نفرة متوحشة أحيانا.

في ليلة مثل هذه قالت لي: "تعال ندبر جريمة قتل".

ضحكت: "من تريدين أن تقتلي؟"

قالت بجدية: "أمي".

نظرت إليها: "لم تحدثيني أبدا عن أسرتك".

قالت وكأنها لم تسمع ما قلت: "وربما صديقة أو اثنتان. دعنا نفكر في ضحية ضحية".

ضحكت بعصبية وقلت ممازحا: "ضعي الخطة وعليّ التنفيذ".

اعترضت: "إن المتعة كلها في التنفيذ، ضع أنت الخطط".

انزعجت من الحديث فحاولت تغييره. بدت سعيدة بما تقول. حاولت أن أجعلها تتحدث عن أسرتها. ولكنها أحبطت كل محاولاتي.

كانت تحملق فيّ بعينيها الناعستين. هل بدأت أقع في غرامها؟ أزعجتني أفكاري الرومانتيكية. كانت دليلا على الدخول في مرحلة عمرية مضطربة. "فسلمى" امرأة مثيرة ولكني أفزع من فكرة تكريس عواطفي لامرأة ما أيا كانت. فسفري الدائم وحياتي القلقة وحبي لحريتي وعدم اضطراري إعطاء كشف حساب عن تصرفاتي لأي مخلوق كل هذا يتنافى مع فكرة الارتباط بامرأة والالتزام حيالها بالعديد من الوعود الخانقة.

رغم ذلك فوجئت بي أقول: "ألا تحبين أن نظل معا على الدوام؟"

طلبت سيجارة أخرى. أصاب ذلك كبريائي في مقتل. توقفت لشراء الـLM التي تفضلها. وقبل أن أعود إلى السيارة لفت نظري مجموعة من الشباب يتسكعون بالقرب منها. عندما دلفت إلى داخل "الأوبل" بدا عليها سرور غريب. فسرته على أنه إحدى مراحل حياتها الليلية. لابد من السرور المبدئي للوصول إلى النشوة النهائية. فهذه الدورة لازمة وحتمية. أعيشها معها قطرة قطرة. غيرت بنفسها الموسيقى إلى "سيلين ديون."

"ما هو اسمك الحقيقي؟"

فاجأها سؤالي ولكنها لم تهتز. أشعلت السيجارة الرابعة ربما. كانت شرهة للدخان. وقالت: "بالنسبة لك أنا اسمي سلمى".

"إنه اسم لا يليق بك. إنك بحاجة إلى اسم أكثر إشعاعا".

"إنه اسمي ويكفيني".

كنا نسير على طريق "صلاح سالم" عكس اتجاه المطار عندما اقترحت عليها: "أتأتين معي لحضور حفلات "كاظم الساهر" في الأردن بعد أسبوعين؟"

مالت نحوي: "رائع. أوكى."

ينقصها الحماس دائما. لم أضف شيئا. أخذت فجأة تحكي فيلما شاهدته. مللت حديثها فغيرت شريط الموسيقى. في لحظة واحدة بدت بلهاء. فكرت أن أبتر السهرة. أخذت تسوي شعرها للمرة الخمسين في المرآة وأعادت وضع الروج على شفتيها. وضعت حقيبتها الكبيرة الملونة على المقعد الخلفي وبدا عليها الاسترخاء.

"لف بي القاهرة."

أحسست بطاقة غريبة بعد هذا الطلب. أذكر أننا قضينا عطلة نهاية الأسبوع ذات مرة على شاطئ البحر الأحمر. وفي يومين اثنين رأينا كل الأماكن وفعلنا كل الأشياء ولم ننم سوى ساعتين بالكاد. كنت سعيدا بحيويتها. وعندما عدنا صباح السبت إلى القاهرة ودعتني ببرود. وفي المساء رفضت دعوتي على العشاء. الآن أشعر أنني أملكها ولكنها تفلت في أقل من ثانية. أردت أن أعاود استجوابها. كانت دائما تدهش من أنني لا أحاول البحث عن هويتها الحقيقية. حتى أنني سألتها مرة على التلفون: "هل أنت متزوجة؟" ضحكت من قلبها وقالت: "اطمئن. أنا حرة."

لم أرد تحويل السهرة إلى معركة كلامية، لذلك التزمت جانب السلم وأدرت لها أغاني حب ناعمة. لم يبد على وجهها ملامح المزاج الحالم. انتظرت حتى يستولي مركز العواطف في مخها على القيادة. كنت أكره أن ننهي الليلة بوداع فاتر في مكان وقوف سيارتها أو أن تتسلل من غرفتي بالفندق في ساعة متأخرة وأستيقظ في الصباح مع الصداع والخواء. كنت أفضل أن نذكي عواطفنا بأي شيء تافه، بأي شيء كبير. كنت أفضل الليالي الدسمة الحارة. أحيانا كانت تجاريني. أحيانا تصبح ساخرة وغير محتملة.

طلبت مني التوقف فجأة. جرت من السيارة كالمهووسة. أوقفت امرأة طويلة القامة تحمل طفلة بين ذراعيها وكيس ضخم يتدلى من يدها. كان اللقاء بينهما فجائيا وحارا. شاهدت "سلمى" تشير نحوي بعد قليل والمرأة توجه لي شبه ابتسامة. ودعا بعضهما البعض وعادت "سلمى" إلى السيارة. سألتها عمن تكون. ابتسمت في غموض وطلبت أن نتوجه إلى أحد البارات لأنها بحاجة إلى الشراب. لم أهتم طويلا بهوية المرأة. ولكني أعدت عليها الدعوة لزيارتي في ألمانيا. شربت كأسين متتابعين ولم تعطني جوابا قاطعا. كانت نزقة جدا في هذه اللحظة وشعرت بالرغبة في ركلها. تخيلت منظرها وقد انقلب الكرسي بها. تخيلتها ملقاة على الأرض موزعة بين الدهشة والشعور بالإذلال. سرتني جدا هذه الخيالات. بدأت أغيظها ببعض التعليقات والنكات السمجة. وبدأت هي تشتم قوميتي بالكامل. كنت أعرف أنها شرسة ولا تهرب من ساحات النزال.

قالت فجأة: "أتعرف أنني ألعب كونج فو؟"

أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى وقلت باستخفاف: "النساء لا يلعبن الكونج فو."

فسدت السهرة كلها. ضحكت بصوت مسموع ووضعت ساقا على ساق فارتفعت حافة الثوب أكثر. كانت تعلم أن عريها يثير حنقي عندما نكون متشاجرين. كانت تفتعل الأسباب لتكشف عن جسدها أكثر فأكثر عندما نختلف. وجدتها تسكب الكأس الرابعة. طلبت منها أن ننصرف. بدأت تتلفظ بألفاظ قبيحة. كانت هذه إحدى حالاتها. فجأة تتحول أمامي من المرأة الأنيقة المعطرة إلى سكيرة عاهرة تتلفظ بألفاظ لا تليق بأية امرأة. كانت تعيش هذا الدور باستمتاع. وغالبا ما كانت تصبح أكثر رقة في اللقاء الثاني. كانت تأتيني بعده بحلة زاهية ولسان نظيف، وغالبا ما كان حديثنا يميل إلى السياسة أو الأحداث الهامة. كان ذلك يسليني في الماضي. مرة أو مرتين اصطحبتها في سهرات عند أصدقاء حميمين لي، وسرعان ما كانت تشرب حتى الثمالة وتبدأ في استعراض إمكانياتها الدنيئة ونزواتها البوهيمية. وكنت أجاريها. أضحك معها وعليها. أما اليوم بعد أقل من شهرين على علاقتنا، صارت هذه المشاهد عذابا لا أدري كنهه. كنت أشعر أنها تعمد إلى قتل كل شعور نظيف أحسه نحوها عندما تتحول إلى هذا المسخ الوقح. كنت أرى في عينيها نظرة سادية وتستمر هذه النظرة حتى ننتهي تماما.

عدنا إلى السيارة أخيرا. كانت ثملة وبدأت تغني وتضحك وتتكلم في وقت واحد. أشك أن هذا تأثير الخمر وحدها. الخمر بريئة من كل هذا. أشعلَت سيجارة. لاحظت أن العلبة الجديدة على وشك أن تنتهي. سرنا بصمت لبعض الوقت. كنت قد هدأت وأراحت هي رأسها على المقعد الذي أرجعته قليلا للوراء. وضعت يدها على كتفي وأخذت تناديني بأسماء التدليل الثلاثة التي اخترعتها لي.

ثم أضافت فجأة: "هل قلت لك من قبل إنني بنت حرام؟"

أوقفت السيارة. كان الشارع هادئا. رأيت في عينيها نظرة حزن. استوضحتها ما قالت.

عادت إلى نفس اللهجة. لم توضح شيئا. عادت إلى الضحك والنكات. ثم قالت: "كل ما أعرفه أن أبي قد يكون بائع طرشي أو قد يكون وزيرا".

شدت حقيبتها بعنف وفتحتها. طلبت مني أن أنطلق. كانت تبحث عن شئ ما. كانت يدها تعبث بعنف بمحتويات الحقيبة. في النهاية سكبتها فوق جونلتها القصيرة وأخذت تبحث بين آلاف الأشياء الصغيرة الهشة. أخيرا وجدتها. سلسلة رفيعة ذهبية يتدلى منها مصحف ذهبي. فتحته، كان به مصحف ورقي صغير.

قالت: "أتصدق أن هذا هو مصحف بحق وحقيقي يحتوي على القرآن كله بخط صغير؟"

نظرت إليه في إعجاب ولكنها لم تعطني إياه. أعادت وضع أشياءها البعثرة بعناية في الحقيبة. كنت أعجب لكمية الأشياء التي تحملها معها. كانت تحمل معها نموذجا مصغرا لخزانة امرأة عصرية. بدءا من بنسات الشعر حتى السشوار الصغير. في البداية فسرت الأمر على أنه طريقة عملية تناسب تنقلها الدائم بين أفرش الرجال. ولكني أشك الآن بهذا الرأي. أخذت تسوي شعرها في مرآة من طراز كلاسيكي. غيرت لون الروج وخلعت الأقراط الطويلة من أذنها ووضعت أقراطا صغيرة ملونة. فتحت أغنية "القدس" "لفيروز". ابتسمت لي، واعتذرت عما قالت وهي تقبلني على خدي بحنان.

قلت لها: "أنا أظن أنه يمكننا أن نحاول سويا."

كانت محاولة مني لوضع أسس مختلفة لعلاقتنا. لم تتجاوب مع محاولتي تلك. ألمحت لها أن ماضيها وحتى حاضرها يمكن أن يصبحا أثرا بعد عين. وأنه لا يعنيني سوى المستقبل.

اقترحت: "هيا بنا إلى الأوتيل".

قدت السيارة بهدوء. لم أكن متعجلا. لم أعد أشم رائحة الخمر. رشت قليلا من "سامسارا" على عنقها وثوبها. بدلت أغنيات "فيروز" بأغان ألمانية.

سألتها: "هل سأراك غدا؟"

نظرت إليّ بطرف عينيها ولم تجب.

# سكون

أطفأ الراديو للمرة الأولى منذ استيقاظه. لا يبارح إذاعة القرآن الكريم. لكنه يفضل سماع القرآن وتفسير الآيات والأحاديث على الجدل الذي كان دائرا الآن بين صوتين يصر كل منهما على الزعيق على صوت الآخر. سار خطوتين باتجاه النافذة على أمل أن يلمح أحدا في الشارع ممن يعرفهم، طلة على عالم مألوف يزيح بعضا من وحشة تملأ الشاشات والأصوات القادمة عبر الأثير.

كان بحاجة إلى طبق فول بالزيت والليمون. ينظر إلى المنبه القديم. الساعة قاربت الثامنة. لكن الشارع ساكن. لا صوت يدخل من بين فرجات الشيش المغلق. يستغرب الصمت. يبقي في الفراش لحظات يفكر في طبق الفول. يتذكر أن "أحمد" ما زال يعاني من الكحة وأن عليه شراء دواء شرب جديد من الصيدلية اليوم. لكن أين "آمال"؟ لابد وأنها تقوم بكي القميص له أو مريلة "أحمد". أو ربما تعد "مي" للذهاب إلى الحضانة. ما زال يتعجب من حال الدنيا التي تمشي بالمقلوب. مصاريف الحضانة تفوق مصاريف رابعة ابتدائي. فآمال تعد صندوق طعام به كل ما يغري الأطفال من ساندويتشات وحلوى وشكولاته وعصائر. وهي بارعة في إعداد الأطعمة الخفيفة وتتفنن في تقطيع الخضروات وأحيانا الفاكهة بأشكال جذابة. كم يتمنى لو لديها الوقت الكافي لإعداد طبق الفول بزيت الزيتون وكثير من الكسبرة والليمون. لديه كميات شهرية من العيش الفلاحي الطويل. يستلم حصته من طرف عمته كل شهرين. وتقوم "آمال" باللازم للحفاظ عليه طريا وطازجا.

يلقي نظرة جديدة على المنبه الذي تدق عقاربه في تناغم أليف. الثامنة والربع. يحاول النهوض. يتذكر فجأة أن "أحمد" لم يتصل به منذ... لا يعرف تحديدا، لكنها قد تكون ثلاثة أشهر. أو أربع. وربما كانت سنة. يحتفظ بورقة عليها رقم تلفونه لكنه يحتاج إلى الذهاب إلى السنترال لإجراء المكالمة. يحب المشي إلى السنترال. ودائما ما يواسيه عم مصطفى عندما لا يتم الاتصال بأنه لابد من مراعاة فرق التوقيت بين قارة إفريقيا والعالم الجديد. يحاول تذكر اسم الولاية الأمريكية، فتعجزه حروفها المتداخلة الغريبة.

يحب تناول الفول في الصباح لأنه مشبع وكاف. يمكنه التركيز في عمله طوال اليوم بعد شرب كوب الشاي التقيل من يد عم حسان. كانت ينتظر سماع الأصوات الأليفة تخترق فتحات الشيش. كان يتتظر شروق أصوات الصغار استعدادا للذهاب إلى المدرسة. تحرك نحو الطرابيزة الصغيرة المثقلة بعلب الأدوية في منتصف الغرفة. السيدة الطيبة تضع له عادة قبل انصرافها الأدوية التي يجب تناولها في الصباح. لم يجدها. ونظره لن يساعده في التعرف عليها. أمسك بسماعة الهاتف القديم ورفعها إلى أذنه. حاول أن يتصل برقم يعرفه. خانته ذاكرته. استعان بالعدسة المكبرة كي يجد ضالته في دفتر التلفون القديم. الصفحات بلون الكراميل مغطاة بصفوف من الأسماء والأرقام. أبناء عمومة، إخوة، زملاء عمل، جيران، معارف، موردي خدمات، جيران قدامى ومعاصرين، أصهار. أسماء تغطي حروف الأبجدية منها ما أصبح عدوا ومنها ما طواه النسيان وأكثرها تاه في دهاليز الحياة.

وجد ما يشبه الاسم الذي يبحث عنه. جار ودود يمكن الاعتماد عليه معظم الأحيان. دق الرقم على أزرار الهاتف المهتزة غير الثابتة. أتاه صوت طفلة أخبرته بسرعة أن النمرة غلط.

اقترب من الشيش وتساءل عما يمكن أن يكون عليه العالم ذلك الصباح. في زمن آخر كان يسارع بالخروج إلى الشارع متناولا آخر رشفة قهوة على الباب ملقيا آخر نظرة سريعة على طفليه قبل أن يركب سيارته إلى مقر عمله.

لا يذكر حاليا أيام العمل. لكنها كانت أوقاتا لا بأس بها. كانت جزءا من حياة هادئة. لم يكن يحب الصخب. سارت حياته الخاصة والعامة كنهر غير هادر. وقد أوصد كل باب للريح منذ زمن طويل. لكنه اليوم يفتقد صخب العالم. يفتقد الأصوات العصية على السمع. شك في قدرته على التواصل بحواسه. فتح الراديو وسمع الصوت واضحا. تعليق على الأحداث.

أراد أن يغامر بالخروج إلى الصالة. بدت المسافة مخيفة ولا شيء مألوف يلوح في الأفق. لم يعد يمكنه الاعتماد على النظارة. بقي في مكانه. الخيار الأكثر سلامة. يريد أن يقطع زمنا إلى لحظة مستقبلية أفضل من الحالية. مرت في خياله صور مرتبة لحياة رجل مر على العالم في سلام. تمنى لو دخلت عليه الست الطيبة أو رنت الجرس جارته في الدور العلوي. أحيانا تأتي بأطباق المهلبية والكيك والبسكوت. كانت زوجته تجيد عمل كل أنواع الكيك. كان يفضل الكيكة الرخامية. يتناولها مع الشاي في المساء أمام فيلم معاد. يحب الفرجة على الأفلام التي اعتاد عليها. زوجته كانت تحتفظ بمجموعة أفلام شادية القديمة. ابنه ما زال يجلب له الكاسيت بعد أن عرف أن أبيه متوقف زمنيا عند حدود الكاسيت.

اقترب من الأريكة. جلس عليها وأغمض عينيه. ما زال الشارع ساكنا.

# لـيـلـى

وقع نظري عليها. لم أر في أول لمحة سوى عينيها. بعدها تتابعت تفاصيل وجهها. الأنف والشفتان. رأس أطل من بين رؤوس كثيرة. غرقت كل الرؤوس العديمة الملامح في الظلام وبقي ذلك الوجه يلمع بكل إبهار. من بين كلمة وأخرى ومعادلة وأخرى. سمحت لعيني أن تجولان وتستقران عندها للحظة أو اثنتين.

بعد انتهاء المحاضرة. تنهدت تنهيدة عميقة. تنهيدة استقرت في أعماقي منذ ستة عشر عاما. غفت وسط ركام الأيام. نسيها الزمن. وها هي أخيرا تنطلق متحررة من كل القيود. خرجت ومعها حزمة من ذكريات أغلقت عليها جيدا في إحدى زوايا عقلي ومنعتها من الخروج. ذكريات سنوات هي بكل العمر. هذا الوجه الذي راح في سبات عميق ها هو يصحو اليوم ويعيد معه كل حلاوة الماضي الراحل. هذا الوجه الصغير. العيون السوداء البريئة التي تعرف الشقاوة عندما تستفز. ذلك الأنف الصغير المتكبر. تلك الوجنتان الممتلئتان بألوان فرحة. وتلك الشفاة الخطرة. هذا الوجه ما الذي أتى به اليوم وكأنه أثر تاريخي من زمن سحيق؟

هل كانت هي؟ هي من خفق لها القلب أحلى خفقاته وكف بعدها عن الخفقان. هي من عرفت معها سر الحياة ولماذا أتينا لهذا العالم. هي من منحت كل السعادة ثم أخذتها بكل أنانية ومضت. هل كانت هي؟ أم أنه لم يكن لها وجود على الإطلاق بين كل تلك الوجوه وأن ما رأيته كان خيالا، شبحا، وهما؟

من هي؟ أريد أن أعرف. بل أتحرق شوقا لمعرفة هوية تلك الصورة التي أتت بعد كل هذه السنوات لتذكرني بكل قساوة بفداحة خسارتي.

ظل ذلك الوجه يداعب عيني في صحوهما وفي نومهما طوال يومين خلتهما سنتين. وجه تلميذتي الصغيرة ووجه حبيبتي الصغيرة أخذا يتداخلان بصورة مزعجة حتى لم أعد أفرق بينهما. ربما يكون الفرق الوحيد في تسريحة الشعر. فأنا أذكر أن ليلاي كانت تملك شعرا طويلا. أطرافه مذهبة. وكانت تغير من شكله حتى كنت أخالها كل يوم فتاة جديدة. مرة ينسدل فوق جبينها فتبدو عيناها كشمس رقيقة خجلى من وراء ستار من السحب السوداء. ويوما تأتي بكل وجهها كبدر يتحدى العالم ببهائه ولا يعود لشعرها أي دور إلا أن يتأرجح فوق قمة رأسها.

تلك الصغيرة الأخرى التي لا أعرف لها اسما تتحلى بتسريحة عصرية. غرة قصيرة تتلوى في دلال فوق حاجبيها. وشعرها ذو لون مختلف.

ربما كانت بالفعل ليلى. فهي وحدها التي كانت تأسر نظراتي. وهذه الصغيرة التي جلست في البنش الرابع وحده وجهها استطاع أسر نظراتي. ولولا واجب إلقاء المحاضرة لظلت عيناي أسيرتين لديها حتى تشاء هي إطلاق سراحهما.

إنها هي! أتت عبر رحلة طويلة من الحياة بلا حياة. والسير في درب طويلة لا هوية لها. جاءت إلي لتقول لي إنها ما زالت صغيرة وجميلة ولذيذة. إنها ما زالت كل نساء الأرض. وأنها ما زالت محور الكون. وأن الزمن صديقها لا يؤذيها كما يؤذي الآخرين.

ابنتها؟ كلا. ليلى أصغر من أن تكون هذه ابنتها. كان وقع الكلمة التي رنت في عقلي حادا. طلت علي من بعيد. شممت عطرها قبل أن يصل إلى أنفي. كانت تسير في بطء وكأنما تتيح لي الفرصة الكافية لتأملها. الجسد الصغير الرشيق. الوجه المرفوع في كبرياء غامضة. لوهلة خيل إلي أنني أمام ليلى. ولكن ليلى لم تكن ترتدي مثل هذه الملابس التي أراها أمامي. كانت تحب لجسدها أن يتحرك بحرية. ولم تكن تدري أنه سواء فضفاضة أو ضيقة فالملابس لم تكن تحجب أي من السحر الخاص الذي كانت تملكه. أحيانا

كانت تلوح لي كأميرة أتت في الزمن الخطأ وكانت تغضب مني عندما أخبرها بذلك. كانت تقول: "أنت تشعرني أنني مجرد شيء يجب أن يكون نظيفا ولامعا وجميلا حتى يروق للآخرين. إنك تجردني من أسمى ما في."

لم تكن تحب أن أقول لها إن مكانها في الحرملك. جميع الفتيات يغضبن من تلك الأفكار ويتمنينها. فالحرملك كان رمز القيد في الحقيقة ورمز الأنوثة في اللاوعي. والحريم كانت لهن قيمتهن عند من يملكهن على الأقل.

سمعت صوتها لأول مرة عندما مرت بالصدفة أمام باب المعمل. كانت تبحث عن الأستاذ لتستأذن منه. وجدتني أمامها. لست أذكر لم كانت تريد الاستئذان. لا أذكر إلا عينيها تنظران إلي بتحد غريب وكأنهما تعرفان تأثيرهما، وصوتها يصل إلى أذني كنغمات ممتعة. لم يكن كصوت ليلى ولكنه بالتأكيد حمل ملامح كثيرة منه، تماما كما حمل وجهها ملامح وجه ليلى. نظرت إلى ظهرها وهي تمضي أمامي. شعرت أنني لو أدرتها فجأة سأجد ليلى أمامي بعينيها الرقيقتين وشعرها الطويل وعقلها الذي يتصارع مع أنوثتها.

عندما عادت بعد أيام كثيرة كنت في انتظارها أحلم بأن يكون اسمها ليلى. سألتها قبل أن تدلف من باب المعمل: ''ما اسمك؟''

لمحت نظرة دهشة عقبتها إجابتها: ''يارا.''

لم أحبها تلك اليارا في ذلك الصباح البارد بثوبها الأزرق الضيق. لم أحب أن يصبح ذلك الجسد الغض تحت رحمة كل العيون. حتى عيني ليس من حقها أن تتسللا من فتحة الثوب الطويلة تتأملان ساقيها. كان عند ليلى كل الحق عندما قالت إن ملابس الفتاة تعكس الكثير من شخصيتها. لطالما كنا نتعارك لأنها كانت تجابه الجميع بما تعتقده فيهم بلا رتوش وبلا زينة. كنت أقول لها إنها تخسر ولا تربح وأن هذا ليس من الصراحة. وكان منطقها أنه لو أتبع الجميع هذا الأسلوب ستصير الحياة أكثر احتمالا. فالنفاق يأكل النفس بلا وعي منا. فتصبح أكثر شرا.

كم كان حلوا الحديث معها! كم كان حلوا معاكستها ولو لمجرد استنفار كل خطوط الدفاع عندها والتمتع بمنظر القطة وهي تخمش. كنت أحب رؤية مخالبها الناعمة. وكثيرا ما كانت تتهمني بإثارة غيظها لمجرد أن هذا جزء من وظائفي الرجالية ''ذلك الوحش البدائي يسكنك كما يسكن جميع الرجال المتحضرين.''

''أنت متحررة لمجرد حب التمرد والتمتع بقول لا وارتداء ملابس الحرب.''

''التمرد من شيم الإنسان الحقيقي. الإنسان الذي يحترم عقله وكرامته.''

''التمرد يفقد الأنثى تسعين في المائة من أنوثتها. ويجعلها مسخا لا هي رجل ولا هي امرأة.''

كان ذلك الحوار في زمن ما زالت فيه الفتيات في بيوتهن يتجملن من أجل الزوج الآتي. في زمن كانت الفتاة تبحث في خفر عن مكان تحت الشمس. وكانت ليلى نغما شاذا وسط كل هذا. حتى أنا كان وقعها على نفسي شاذا.

لم يكن يضايقني أي من كلامها أو تصرفاتها. أعترف أنني أحيانا لم أكن آخذها على محمل الجد. بل كنت أتسلى برؤية ذلك الوجه يحمر تأثرا. وذلك الصوت الخفيض يجاهد كي يرتفع ويعترض. لم يكن يعكر صفو الأيام إلا تلك الحرب الخفية التي كنت أنا طرفها الأوحد والتي كان يجب أن أنتصر فيها على طول الخط. لم تكن تدري بوجود أي حرب ولم أكن أطيق أن أشعر بصراعي ضد ذكائها. كان يجب أن أظل أسبقها على الأقل بدرجة واحدة وإلا تحطم كل شيء على صخرة الطبيعة التي خلقتني رجلا وصنعت منها امرأة وظلمتها فمنحتها ذكاءا على سبيل الخطأ. كان يجب أن تكون درجاتي أعلى من درجاتها. مرتبتي العلمية أعلى من مرتبتها. كانت زميلة دراستي ولكن كان يجب أن تكون معلوماتي كمعلومات أستاذ لها. وإذا ما فشلت في أن أسبقها بتلك الخطوة الأبدية،

كنت أحاول أن أؤخرها هي خطوة. ذلك النفاق الذي كانت تحدثني عنه كنت أستشعره عندما كنت أضع قناعا مزيفا من المواساة إذا أخفقت في شيء ما، بينما داخلي يشعر بسرور هائل وبأنني أخيرا الرجل. أتساءل الآن إن كانت تلك الحجرة المتوهجة، تلك اليارا، تحمل عقلا تحت ذلك الشعر الناعم المنسدل على كتفيها واضعا وجهها ضمن إطار حريري.

تمنيت لو استطعت أن أسألها إن كانت لها قريبة تدعى ليلى. من يدري ربما.

بدأت أبحث عنها في رواحي ومجيئي. ليس من أجل خاطر عيونها. بل من أجل خاطر عيون ليلى. كنت أريد أن أشاهد صورة حية ولكنها ليست حية. مجرد صورة متحركة. كشريط سينما يعرض صورا حية ولكنه لا يحمل أي حياة. تمنيت لو عبرت الشاشة الفضية إلى حيث ليلى وبقيت معها في الزمن المفقود. أعيش كل ما عشناه مرة ثانية وثالثة ورابعة. لن أمحو كلمة. لن ألغي شجارا. لن أرفض حزنا عشناه يوما. لن أعاتبها لأنها لم تقل لي يوما كلمة حب. لن أنعتها بالأنانية لأنها كانت تسمع كل ما كنت أشعر به في صورة كلمات رقيقة. وأنها كانت تبخل حتى بالشكر، لأنها مثل ملابسها الفضفاضة التي تخفي المشاعر وتكره الكلمات الضيقة التي تكشف كل شيء. يارا تلبس الضيق والفضفاض. تحمل عيني ليلى وأنف ليلى. شفتاها ممتلئتان ولكنهما ليسا نفس الشفاه. من الغريب أن كل ما أذكره من ليلى هو عينيها وكلماتها. ولا أعرف شيئا عن شفتيها وكأنها نجحت أخيرا في إقناعي بأنها إنسان كامل وليس أنثى تتلوى كي تفوز بالذكر الموعود.

ها هي أخيرا تقف أمامي. أكاد ألمسها إذا شئت. تضع يدا على مكتبي وأخرى فوق كتفها. تلبس أساور كثيرة لغجرية. وشعرها يسترخي بشقاوة فوق جبينها. وعيناها الصغيرتان المسحوبتان تتحركان بسرعة من وجهي إلى الكتاب وبالعكس. ليلى عادت مرة أخرى في صورة جديدة. صورة عصرية كانت تحلم بها.

طلبت ورقة لمزيد من الإيضاح. تسليت بمراقبة يديها. أصابعها ممتلئة. أصابع ليلى كانت طويلة ورشيقة. بين دفاترها رأيت كتابا بالفرنسية.

سألتها: "هل تقرءين بالفرنسية؟"

أجابت ببساطة: "أها."

ليلى كانت تقرأ أيضا بالفرنسية. ولكن أنت صغيرة وجميلة وأنيقة.

أنهيت الشرح بسرعة. لم أعد أهتم بها. لا أريد أن أراها ثانية. إنها ليلى عادت ثانية لنعاود الشجار والخلاف والحرب الصامتة. والحب. إنها ليلى متنكرة. صبغت شعرها ورمت ملابسها الفضفاضة.

تمنيت لو ناديتها وسألتها بأعلى صوتي. هل تكرهين أنت الأخرى عصر الحريم؟ هل تعتبرينني بدائيا إذا كنت أكره قراءتك للكتب وتفوقك في الدراسة؟ هل ستعتبرينني دكتاتورا إذا أمرتك أن تتواري وراء جدران منزلك، وترتدي زي الجواري وتتعطري بعطور بوهيمية وتنتظري؟ تنتظري رجلك لتكوني له وحده. أن تتعلمي الغناء كي تسلينه. تقرءي شعر الحب والهوى كي تعرفي كيف تتغزلين به كما يجب. لا أن تنعتيه بالبدائي والهمجي والأناني والمتسلط لأنه يريدك أن تكوني امرأة تتبع قوانين الطبيعة.

نسيتها في أربع وعشرين ساعة. فقدت كل رونقها وسحرها. وسخرت من مراهقتي المتأخرة. طفلة في الثامنة أو التاسعة عشر تجعلني ألاحقها بنظراتي وأتخيل أنها تشبه حبا ماضيا.

كان الصباح ممطرا ولا أثرا للشمس. كنت أركن السيارة عندما لمحتها في البعيد. كانت تميل بقدها الغض على عمود بارد. لم تكن وحدها. تأملت المنظر بقلب منقبض. من هو؟ حبيب؟ أم صديق على الطريقة العصرية؟ هل يدري أنه أمام ليلى أخرى؟ ألن يضايقه إن كانت هي الأفضل والأذكى والأحسن؟ هل سيظل الحب على حاله؟ هل سيزيد؟ هل سيتلاشى؟

ترجلت من السيارة. لم أحس بقطرات المطر تلطمني بقدر إحساسي بمدى خسارتي الأمس واليوم.

# رحيل

ماتت حنان.

كنت أعرف أن الوقت حان لرحيل أحدنا . تمنيت رحيلها خاصة قرب النهاية. وجاءت النهاية علي غير توقعاتي. كانت وديعة، رائقة، مبتسمة معظم الوقت دونما سبب واضح. على الأقل بالنسبة لي. نالت عطفا ومحبة لم تنلهما طوال حياتها. أحيانا يكون للمرض وجهه الحسن. هل أبدو قاسيا بالنسبة لمن اعتادوا التمسك بأهداب المثالية؟ لمن اعتادوا الاختباء وراء بارافانات الأخلاقيات الهشة؟ من يخفون ساديتهم ودمويتهم وراء زي التعاطف والمحبة؟

لم نكن سعيدين معا، أنا وحنان، ولا حتى في شهر العسل. كنا نتوازى بشكل مخيف. أحيانا كان يهيئ لي أنها خلقت كي أعذبها، وأنها لا تستطيع العيش دون هذا العذاب. منذ أول يوم لاحظت أنها تعشق البكاء. فعلمتها إياه. كانت تلميذة بليدة في كل شيء تقريبا. كان علي أن أبدأ من الصفر، من تحت الصفر. فقد كانت تجهل أساسيات الحياة. في أيامها الأخيرة كانت تنظر نحوي بنوع من الارتياح وكأن الخلاص قد حان. كانت تطلب مني كل صباح أن أدعو لها. كانت سخريتها واضحة ولكني كنت قد فقدت حق الرد. مجرد رقودها فوق هذا الفراش المشبع بالروائح المطهرة كان يحميها من كل اعتداء. وانقلبت الآية صرت أنا من يتلقى الضربات في استكانة. انقلبت الأوضاع. في البداية كدت أجن. كان الإحساس بالعجز يقتلني. ولكن ما لبث جو الحزن والدموع أن أخذني في ركابه. وكأنني أتفرج علي فيلم مأساوي. أنفعل به طالما أراه وما أن تنطفئ الأنوار حتى أعود لعالم الواقع.

لطالما تعجبنا سويا من الدافع الذي دفع أحدنا لطلب الزواج من الآخر، ودفع الثاني للموافقة على هذا الطلب. لم أكن أبدا رجلا قدريا، ربما لم يكن عندي إيمانها المطلق بالغيب. كنت أتعجب من حالة اللادهشة التي تهيمن على تفكيرها المنمق، المتساوي بتفاهة منقطة النظير. كانت تتعامل مع زواجنا تعاملها مع مفرش كروشيه أو كانفاه؛ سطور منظمة متناسقة يسند بعضها بعضا. مربعات صغيرة متراصة تكون وحدات أكبر. باختصار تفاهات تمسك بتفاهات حتى تصنع ما يشبه الحياة.

في فترة مرضها الأولى حاولت بيأس أن تلملم الخيوط المتناثرة لتصنع منها كرة معوجة؛ لتحافظ بها على دورها المحتوم. لم أعطها فرصة. كنت أتنفس الصعداء بوقاحة أمامها. تقبلت مشاعري الفجة الغبية، أحيانا بصدر رحب، وكأنها اختارت المرض كي يخلصها من باقي الأوجاع. كنت أدرك في قرارة نفسي أنها فرحة بهذا المرض أكثر من خوفها من الموت الذي يجلبه. وكانت تدرك حتما أن هذا المرض يعطي وجودها ما يفتقده من حماس، وما يحتاجه من لون.

قبل رحيلها بأيام، فوجئت بها ترتب حجرتها بعناية مضحكة. تعيد ترتيب علب الكريم وأحمر الشفاه وزجاجات العطور فوق التسريحة. تزيل الأتربة العالقة بالكركبة المتناثرة فوق الكوميدينو والبوفيه الصغير. لم أندهش كثيرا. ظننت للوهلة الأولى أنها علامة تحسن نسبي في حالتها الصحية. ولكن عنف النوبة التي انتابتها في المساء قدم تفسيرا آخر. أكثر إبهاما من الأول، أكثر قسوة ربما. كانت حنان تستجدى لحظة حب صادقة مني. مني أنا بالذات. ربما كانت شريرة أكثر مما أتصور. ربما كانت تود أن تخلف في نفسي إحساسا بالذنب يطاردني طيلة حياتي.

من الصعب الآن أن أذكر موضوع الحب بيننا. فهذه الفكرة الأسطورية ما خطرت أبدا على بال أحدنا. باختصار لأن احتياج كلينا من الآخر كان يتباعد ويتعارض مع فكرة الحب. لم تتعد علاقتنا أبدا حدودها، ولم يطمح أينا في المزيد. لم أكن أبدا راضيا ولم

أكن أبدا ساخطا. رحيل حنان كان راحة لي من صداع خفيف لازمني لعدة سنوات بلا كلل ولا ملل. وانتقال كانت بحاجة إليه. لقد قضت حنان عمرها كله في انتظار هذه اللحظة السحرية.

# حلم نهار أحد

دخلت مع مجموعة اليابانيين إلى الكنيسة المزدحمة. كان الجو حارا. القداس في نهايته. استدارت نحو الشموع المضاءة ورأته. كان وجهه مبتسما ودودا. بدا وكأنه يحييها. لم تعتد الحديث إلى الغرباء. أشاحت بوجهها. عندما خرجت من كنيسة "الساكر كور" بعد حوالي خمسة عشر دقيقة. كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء. اشترت علبة كوكا من فتاة آسيوية تضع على صدرها لوحة كتب عليها "كوكا كولا 10 فرنكات". جلست على مقعد خشبي بجوار جدة وطفل صغير. كانا يتناولان باجيت. بدا على الطفل أنه يلعب بمحتويات الباجيت أكثر مما يأكله. لم تمانع الجدة بل كانت تضحك. ميزت بسرعة لغتها الأسبانية. شربت العلبة دفعة واحدة. كان الجو ملتهبا. بدأت تحس بطراوة الظل. أراحت ظهرها على المقعد وأخذت تراقب الرائحين والغادين.

رأته جالسا في البعيد على الدرجات الحجرية تحت الكنيسة. لم يكن ينظر نحوها ولكن شيئا ما فيه دفعها إلى الظن أنها هي المعنية بأفكاره. أفزعها ذلك قدر ما سرها. نهضت واشترت زجاجة مياه معدنية صغيرة شربت نصفها وسكبت نصفها الآخر على قدميها. أخذت تهبط الدرجات الجانبية ببطء وهي تتأمل المكان. أخرجت الكاميرا والتقطت بعض الصور. كان مكانها المفضل عندما تكون وحيدة. تسير وسط السياح. تنظر إلى الوجوه والسماء والحمائم والأطفال. تدخل الكنيسة تشهد جزءا من القداس.

عادت وصعدت إلى حيث أحد الباعة الأفارقة. ابتاعت منه كاسكيت أبيض دون مجادلة في السعر. ثبتته على شعرها الأسود القصير. كانت فخورة بتسريحتها الجديدة ولكنها أحست بالرغبة في ارتداء هذا الغطاء الواقي. سارت حتى محل التذكارات وأخذت تتأمل الحلي الفضية. رأت صورته منعكسة على الزجاج بقربها. نظرت إليه في دهشة. لم يبد عليه أنه انتبه لوجودها. خجلت من أوهامها وانصرفت بسرعة من المحل. سارت بخطى سريعة في الشارع الطويل. كانت تنوى أن تتنزه قبل العودة إلى بيتها. أمامها ساعات طويلة قبل بدء سهرة المساء مع الأصحاب.

وقفت أمام واجهة محل مغلق تتأمل الأحجار الملونة والساعات والعقود الكبيرة. ترددت برهة لتقرر في أي اتجاه تسير. كان يعبر الطريق نحوها. تسمرت. مر بقربها. لامس كتفها. استدارت نحوه بعنف. قررت أن تفهم هذا اللغز. سارت وراءه. ثم أحست بسخف ما تفعل. خلعت الكاسكيت وسوت شعرها ومضت في الاتجاه المعاكس. لابد وأن الملل قد دفعها لهذا التصرف الأخرق.

دخلت في أحد الشوارع الجانبية. تعرف فيه مقهى صغير ومخبز يملكه يهودي مغربي. لم يكن موجودا. تناولت قطعة كرواسون وشربت عصير تفاح. كان الجو لطيفا داخل المقهى. عرض عليها الجرسون تناول بيتزا. حدثته قليلا ولكنها لم تكن جوعي. فكرت أنه عليها أن تسترد ثوبها الأسود الموشى بالدانتيلا الذي أعارته لجارتها. سهرة الليلة هامة جدا. "فسمية" سوف تقدمها لمذيعة تعمل في إحدى الإذاعات العربية التي تبث إرسالها من باريس. إضافة إلى أنها تنتظر اعتذارا علنيا من "حليم" بعد الفضيحة التي تسبب فيها منذ أيام بسبب سكره. أما المغربية صديقة "جابي" فهي كفيلة بها بعد ملاحظاتها الجارحة أثناء نزهتهم في برج إيفل.

غادرت المقهى وهي تشعر بأن سهرة الليلة ستحمل رياح التغيير على أشياء كثيرة في حياتها. في الخارج خفت حدة الحر قليلا. وعند ناصية أحد الشوارع بجوار إعلان لفيلم أمريكي شاهدته على بعد بضعة سنتيمترات من مكان وقوفها. كان يحدق بها بشكل واضح. أناقته ملفتة. أشعل سيجارة. شعرت بالخوف. عبرت الطريق وسط جمع كبير. ظنت أنها فقدته ولكنها وجدته ينتظر بالقرب من كابينة تليفون. أصبح الأمر واضحا. إنه يطاردها. هل تبادر بالهجوم أم تصبر قليلا؟ وقفت حيرى أمام كابينة التليفون. كانت في مواجهته. تعبيراته غامضة. لم يكن يحملق فيها بل كانت هي التي تحملق فيه في تحد. تظاهرت بأنها تجرى مكالمة. دخل شاب من

الناحية الأخرى. أغلقت حافظة نقودها وحملت حقيبتها بعناية على ظهرها وفتحت باب الكابينة ، فدلف هو منه وصار الاثنان في الداخل. دفعته في خشونة وولت هاربة. هرولت ولم تنظر خلفها.

قررت قطع نزهتها والعودة إلى بيتها. سارت إلى أول فتحة مترو قابلتها. بحثت في حافظة نقودها عن "الكارت أورانج" فلم تجده. لم تصدق أنها نسته. وقفت تفتش في كل مكان بالحقيبة. شعرت بالسخط واضطرت لشراء تذكرة. كانت في طريقها لاستقلال الـRER عندما توقفت غضبى. لماذا تسمح لهذا الغريب أن يفسد عليها نهارها؟ لم تكن فعلا تشعر بالرغبة في العودة للمنزل. ولمن تعود؟ لا ينتظرها هناك سوى أجهزة بكماء واسطوانات ملت سماعها وأحلام لم تغادرها منذ استقرت في باريس من خمس سنوات. لم تحقق ما كانت تصبو إليه لذلك كانت تتمسك كثيرا بهذه المتع الصغيرة: النزهات، الجلسات مع الأصدقاء، الذهاب إلى السينما، رحلات الصيف إلى إيطاليا وألمانيا. كانت تجهز نفسها لنقلة أخرى هذه الليلة. فلو استطاعت الحصول على عمل في الإذاعة لتركت فورا عملها التافه في محل الملابس. ستستطيع أخيرا أن تخرج طاقاتها وأن تتحرر من القمقم. ولا تعود تسمع عبارات الإطراء عن ذكائها ولباقتها دون أن يوصلها ذلك إلى ما تصبو إليه.

صعدت مرة أخرى إلى الشارع. سارت ببطء على غير هدى. وضعت يدها في جيب بنطلونها القصير. وبدأت تستمتع بالمشي في شوارع باريس العريضة. ابتاعت قطعة شكولاتة من صندوق للحلوى. وبعد وقت قليل كانت قد نست تماما ذلك الغريب الذي يطاردها منذ "الساكر كور". تناولت الشيكولاتة على مهل. وذكرها ذلك بإبراهيم الذي كان يتردد عليها في مطعم "نسيم" في الحي العربي "باربيس" أيام كانت تعيش في شقة مشتركة مع فتاتين وكانت تكسب أقل من أربعة آلاف فرنك شهريا. كانت أياما صعبة. ولكن إبراهيم كان يخفف عنها قسوة هذه الحياة بالحلوى والزهور والكلمات الحلوة. كانا غالبا ما يتنزهان في "السين" في "الباتوموش". يشتريان أرخص التذاكر. حاول كثيرا أن يقبلها خلال تلك الجولات إلا أنها كانت تصده بلطف. كانت تحتفظ به في المنطقة الوسطى بين الصديق والحبيب. كان الحب المناسب في الوقت المناسب.

لم تكد تنتهي من تناول الشكولاتة حتى رأته أمامها. كان يشترى جريدة من أحد الأكشاك. قررت أن تقتحم هذا الغريب المجنون. اقتربت منه. تظاهرت بأنها تتفرج على المجلات. وقف ليس ببعيد يتصفح جريدته. نظرت نحوه واقتربت منه. اشترى الجريدة ومضى. كادت تجن. هذه ليست صدفة. أم تكون صدفة؟

غيرت طريق سيرها. أخذت المترو حتى محطة "شارل دو جول إتوال". استقبلتها رحابة الميدان. تنشقت نسمات العصر. خفت حدة الحرارة بشكل ملحوظ. وأخذ الهواء يداعب خصلات شعرها الناعمة. وقفت قرب فتحة المترو تنظر إلى السيارات الرائحة والغادية في سرعة خرافية. تحلم أن تقتني سيارة. تحلم أن تقطن في شقة أوسع من شقتها الحالية. تحلم أن تصبح ذات شأن ويتحدث الناس عن عملها الخلاق. تحلم أن تعثر على رجل أحلامها وتعيش سعيدة. ابتسمت لنفسها. وتذكرت معجبها الغامض. لم تره يتبعها إلى محطة المترو ولا تعتقد أنه سيطير إلى هنا.

عبرت الميدان إلى طريق النصر. جلست على حجر ضخم ووضعت ساقا على ساق. قررت أن ترتدى ثوب الدانتيلا بعد أن تسترده من "سابين". إنها جارة لطيفة غاية في الرقة. تغرد عندما تتكلم. دائما ما تهديها الحلوى اللذيذة التي تعدها بنفسها. تعمل مدرسة في حضانة أطفال وتعيش بمفردها. مرت بقرب عائلة صغيرة. الأب يحمل طفلته على صدره، والأم تحتضن الأب. تتمنى لو تنزهت يوما بهذا الشكل مع رجل تحبه وطفل ينتمي إليها.

أحيانا عندما تراودها هذه الأفكار تتذكر عبد الرحمن. لقد كان مستعدا للزواج منها في أي لحظة، والذهاب بها إلى القاهرة. لم تكن مستعدة أبدا للعودة بعد ما قاست الأمرين للقدوم إلى هنا. كان سيبدو الأمر كمسرحية هزلية. بعد ما أصر أخوها على تزويجها من التاجر الثري، وأصرت هي على الذهاب لباريس لزيارة ابنة عمها. ساعدتها أمها. وبعد حيل كثيرة ومتاعب أكثر تمكنت من شراء تذكرة السفر. استقبلتها سلوى في بيتها لمدة أسبوعين فقط. بحثت بجنون عن عمل خلال هذا الوقت. كان المنزل يكاد يكفيهم: الأم والأب والطفلين. كانت تحتل فراش أحد الطفلين اللذين اضطرا للمشاركة في فراش واحد. طبعا لم يحبا كثيرا هذه الضيفة المزعجة، وبفضل الله وبمساندة أصدقاء زوج ابنة عمها وجدت أول عمل لها في مطعم "نسيم". عندما يمر بخاطرها كل ذلك تتنفس بعمق وتحس بالرضا عن نفسها. لقد خطت خطوات عملاقة في طريق النجاح.

انضمت إلى السائحين اللذين أخذوا في التقاط الصور التذكارية بجانب "قوس النصر" وتسجيل هذه اللحظات بكاميرات الفيديو. طلبت من أحدهم أن يلتقط لها صورة. شكرته وبينما كانت تضع الكاميرا في حقيبتها رأته. توجهت إليه بالكلام بالفرنسية. نظر إليها ببرود وهز كتفيه باستخفاف. بدا أكثر وسامة عن قرب. أكملت حديثها: "إنني أراك في كل مكان أذهب إليه. ألديك مشكلة؟" لم يرد. "أتتحدث الفرنسية؟" أشار إليها أنه لا يفهمها ولا يفهم سر تصرفها الغريب معه. شعرت بالمهانة وانصرفت من المكان.

أسرعت إلى أقرب كابينة تليفون واتصلت بسمية. رد عليها "الريبوندور"، فتركت لها رسالة. لم تكن تريد العودة إلى المنزل رغم تعبها. كانت تكره قضاء نهار الأحد في البيت. كان في نيتها أن "تتفسح" حتى الخامسة أو السادسة ثم تعود لتغيير ملابسها والذهاب إلى بيت سمية. حتى أتى الغريب وأفسد عليها يومها. هو يطاردها فعلا أم أنها "بارانويد" تتخيل ذلك؟ هل هو موجود فعلا أم أنها ترى خيالات؟ كان عليها أن تستوثق من وجوده من الآخرين.

شعرت بالجوع فقررت أن تسير حتى "ماكدونالد". كانت المقاهي مزدحمة بالأمريكان والألمان واليابانيين والعرب وكافة الجنسيات. وجدت طابورا طويلا ينتظر أمام الكاشير. أخذت تعد نقودها. ستأخذ ساندويتش ومشروب وبطاطس محمرة "فريتس". دفعها أحدهم من الخلف ثم قال: "باردون". هزت رأسها نحوه قابلة اعتذاره. لم تصدق عينيها. كان هو. لابد أن في الأمر شيئا. عليها أن تحافظ على رباطة جأشها.

الآن فرصتها لتعرف إن كان شيئا أم كائنا حيا. ترددت قليلا ثم سألت المرأة الواقفة أمامها: "معذرة، هل ترين السيد الواقف ورائي؟" ردت المرأة بفرنسية ركيكة أنها لا تتحدث الفرنسية. أعادت عليها السؤال بالأسبانية. فردت المرأة: "Si". شعرت باطمئنان شديد. بقي أن تحل لغز نواياه. ما هذه المطاردة الغريبة؟ أمعجب أم مجنون أم أن هذه اللقاءات إحدى مصادفات هذا العالم العجيب؟ عندما حان دورها دفعت النقود وتناولت صحفة طعامها. كل الموائد في الخارج مشغولة. اضطرت للجلوس على طاولة في الداخل. جلس خلفها. أحست به دون أن تنظر. فقدت شهيتها ورغم ذلك تناولت الساندويتش كله. وعندما ذهبت إلى الحمام رأته يتجه مثلها إلى حمام الرجال. تركت الطابور واندفعت إلى الخارج كالمجنونة. أرادته أن يفقد أثرها. لم تكن مستعدة لأي مغامرة مع هذا الغريب المهووس. أسرعت الخطى لركوب المترو والعودة إلى منزلها. كان المترو مزدحما واضطرت للوقوف. ابتسم لها شاب تبدو عليه ملامح الهنود. أشاحت بوجهها. يكفيها مجنون واحد في نهار واحد.

تلفتت حولها وهي تدخل شارع منزلها. كان عدد المارة قليلا. فتحت الباب. لاحظت أن قدميها ترتعدان. كانت خائفة بلا شك. صعدت إلى شقتها في الطابق الثالث بسرعة. وأغلقت الباب فورا. تمددت على الكنبة وخلعت حذاءها ثم فتحت الراديو. بدا

الأمر كله كحلم. هل رأته فعلا؟ هل هي بحاجة إلى علاج نفسي؟ ولكن المرأة الأسبانية أكدت لها وجوده. لقد قالت لها إنها ترى الرجل الذي خلفها. كان الطابور طويلا خلفها. تعبت من التفكير فقررت أن تأخذ دوشا وتسترخي حتى موعد الحفلة. وعدتها "سمية" بأن تزكيها عند صديقتها المذيعة. قالت لها إنها تعمل في الإدارة، وإن لها كلمة مسموعة عند مدير المحطة.

بعد أن اغتسلت شعرت بانتعاش. جففت شعرها المبلل بالمنشفة بينما كانت تدير رقم "سابين". طلبت منها الثوب فوعدتها أن تعيده لها بعد خمس دقائق. كان أجمل أثوابها. اشترته من أحد البوتيكات الصغيرة بثمن زهيد. ولكنه يجعلها تبدو كالأميرات. فهو يضيق عند الخصر ويتسع من أسفل. موشى بالدانتيلا عند الحاشية وعند أطراف الأكمام القصيرة، والنصف العلوي مغطى بطبقة من الدانتيلا السوداء الدقيقة. كانت تدخره للمناسبات الخاصة، وسترتديه الليلة. لم تعتد أن تعير ملابسها لأحد، ولكن "سابين" شئ آخر. أتت الجارة بالثوب. وقفت تحادثها قليلا على الباب. دعتها للدخول ولكنها رفضت لضيق الوقت. وضعت الثوب على جسمها، ونظرت إلى نفسها في المرآة.

عندما دقت الجرس في شقة سمية، كان الجميع تقريبا قد وصلوا. استقبلتها سمية بقبلتين وأثنت على ثوبها. دخلت إلى الصالة الواسعة. كان الأصدقاء ما بين واقف وجالس. رأته جالسا أمامها على المقعد مبتسما وفي يده كأس نبيذ. صعقت. سألتها سمية عما بها. لم تنطق. نظر إليها باستغراب. طلبت منها "سمية" أن تتقدم لتقوم بالتعارف بينهما. "أقدم لك نضال حيدر". ثم أضافت أنه المسئول عن البرامج الإخبارية في الإذاعة. تقدمت منه. صافحته وهي تحملق في وجهه. نفس الوجه. كان يبتسم في رضا. قال لها بفرنسية واضحة: "تشرفنا يا آنسة"!